



للشيخ / ندا أبو أحمد



الدار الآخرة

الموت فوائد وأحكام

تمهيد:

إن الحمد لله - تعالى - نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله - تعالى - من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهدِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله - تعالى - وخير الهَدْي هَدْي محمد - صلى الله عليه وسلم - وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

يقول الدكتور عمر سليمان عبدالله الأشقر - رحمه الله - في كتابه "القيامة الصغرى" ص٥:

"إننا جئنا الحياةَ بإرادة واهب الحياة ومُبدِعِها، ونمضي من الحياة عندما يريد واهب الأمانة سلبَها وقبضها، أقوام يأتون وآخرون يرحلون، مثلهم في ذلك مثل أمواج البحر المتلاحقة، كلما انكسرت على الشط موجة تَبِعتها أخرى، ومثلهم كمثل النهر المتدفِّق، تراه دائمًا يجري، ولكن الماء الذي تراه أمامك الآن، غير الماء الذي رأيته قبل لحظة من الزمان.

لكن هذا الامتداد الإنساني المتلاحق سيتوقف يومًا، وسيأتي اليوم الذي ينتهي فيه الوجود الإنساني كله، وتتوقف أمواج البحر، وتجف مياه الأنهار.

لكن هذا الفناء ليس هو النهاية، بل هو مرحلة من الأطوار التي يمر بها الإنسان، وسيأتي يوم نعود جميعًا فيه إلى الحياة؛ لنُحَاسَب على ما قدَّمنا وعملنا.

والإيمان بالرجعة إلى الحياة، ثم الخلود بعد ذلك ضروري لتقويم مسار الإنسان، فالإنسان مركوز في أعماق نفسه حب الخلود والبقاء؛ ولذا فإن إبليس - عليه لعنة الله - أغرى آدم بالأكل من الشجرة المحرم عليه الأكل منها؛ مدعيًا أن الأكل منها يمنحه وزوجَه الخلود، {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} [طه: ١٢٠].

ولما كان الارتباطُ بين حياتنا هذه وحياتنا الأخرى وثيقًا؛ إذ كانت هذه الحياة بمثابة الحَرْث والزرع، وكانت تلك بمثابة الجَنْي والحصاد، كان لا بدَّ للإنسان مِن أن يعلم عن حياته الآخرة ما يدعوه للاستعداد لها، وإقامته حياته الدنيا على النمط الذي يحقق له في الآخرة خيرًا وفضلاً.

ولَمَّا كانت الحياة الأخرى غيبًا لا يستطيع أصحاب العقول الثاقبة، والقلوب المبصرة، اختراقَ حُجُبه، فضلاً عمَّن هم دونهم؛ فإن الله تولَّى إخبارهم عن مسارِهم في رحلتهم بعد الحياة، وعن مصيرهم المحتوم، ومزجَ الحديث عن الحياة الآخرة بالحديث عن هذه الحياة مزجًا يجعلُهما متداخلين؛ تحقيقًا لإصلاح النفوس وتقويمها، في عَالَمٍ تدبُّ فيه مخلوقات كثيرة بشَرية وجِنِّية على العمل لإضلال العباد وإبعادهم عن جادَّة الصواب.

والعلوم التي عرَّفنا الله بها عن اليوم الغائب المستور الذي سنلقاه فيه، لا تصلح فيها الإشارات والرموز، بل لا بد من حديثٍ واضحٍ مفصلٍ، يرى فيه الإنسان ما يجعله يقف على اليقين، فلا يخالطه ريب، ولا ينازعه شك؛ اهـ باختصار.

اليوم الآخر[١] أمر غيبي يجب التصديق به:

يقول الشيخ أبو بكر الجزائري - حفظه الله - في كتابه "عقيدة المؤمن":

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم في الكون، ويكون انتهاء هذه الحياة بكاملها، وابتداء حياة أخرى وهي الدار الآخرة، بكل ما فيها من حقائق مدهشة، من بعث الخلائق، وحشرهم، وحسابهم، ومجازاتهم.

وهذا الإيمان ليس واجبًا فحسب، بل هو أحدُ أركانٍ ستة، تُبْنَى عقيدة المؤمن عليها، فلا تتم إذًا عقيدته إلا به، ولا تصلح إلا عليه؛ قال - تعالى -: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة: ١٧٧].

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: "أن جبريل - عليه السلام - سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الإيمان، فقال: فأخبرني عن الإيمان؟ فقال النبي -

---

١ المراد باليوم الآخر أمران:

الأول: فناء هذه العوالم كلها، وانتهاء هذه الحياة بكاملها.

الثاني: إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها، فدلَّ لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة، وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية؛ إذ هو يوم واحد لا ثاني له فيها ألبتة.

صلى الله عليه وسلم -: ((أن تؤمن بالله، وملائكته، وكُتبه، ورُسُلِه، واليوم الآخِرِ، وتؤمن بالقدر، خَيْرِهِ وشَرِّهِ))، قال جبريل: صدقت".

ولأهمية هذا المعتقد في حياة المؤمن، ولآثاره الكبرى في استقامة الفرد وصلاحه، عُنِي القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله - سبحانه وتعالى.

وبالجملة: فإن الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - واليوم الآخر هو رأسُ الأمر، وأساس الإيمان، وعليه مدار استقامة الإنسان، وصلاح خلُقِه، وطهارة روحه، وبدون هذا الأصل فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه ولا لغيره، وهو شرٌّ كله، لا يُؤْمَنُ جانبه، ولا يُطْمَأن إليه؛ اهـ بتصرف واختصار.

• فاليوم الآخر غيب بالنسبة إلينا، فالغيب يشمل الماضي والمستقبل، وما يغيب عن حواسِّنا في الحاضر؛ كالجن، والملائكة، وأولُ صفات المتقين في كتاب رب العالمين، الإيمان بالغيب، كما قال - تعالى -: {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة: ١ - ٣]؛ فالإيمان باليوم الآخر تصديق لكلام رب العالمين ولرسوله الأمين - صلى الله عليه وسلم - وهذا فيه ما فيه من سعادة العبد في الدنيا والآخرة.

بخلاف مَن يَكفُرون بالبعث والنشور، فإنهم يعيشون حياةً كلها مخاوف وجزع، واضطراب ويأس، وتهافت على الشهوات، وحرص على الدنيا؛ لأنها أكبر همه ومبلغ علمه، وتجده مِن أشد الناس جزعًا عند الموت؛ اهـ.

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر - رحمه الله - في كتابه "القيامة الصغرى" ص ٦:

"إن بعض الذين يرفضون فكرةَ الرجعة إلى الحياة يبدؤون بالنَّوْح الحزين على حياتهم التي تتلاشى وتتناقص في كل لحظة وتمضي، وقد يسلمهم هذا إلى العزلة والألم، حتى يوافيَهم الموت، وإن كانوا كُتَّابًا أو شعراء، فإنهم يُسجِّلون مشاعرهم الحزينة التي يندبون بها حياتهم؛ في مقالات، أو كتب، أو أشعار تجسِّم شِقْوَتَهم وحيرتهم وألمهم، وبعض الذين يكفرون بالبعث والنشور، يسارعون إلى اقتناص الملذَّات والشهوات، كأنهم في صراع مع الزمن، يخشون أن تمضي أيامهم ولَمَّا يشبعوا من مباهج الحياة"؛ اهـ ملخصًا.

• يقول الشيخ الغزالي خليل عيد، في بحث له بعنوان: "ثمرات الإيمان بالله واليوم الآخر"، نُشِر في مجلة "البحوث الإسلامية" (٨/ ٢٤٧):

"الذي كفر بالله والدار الآخرة، ونسي أن وراء هذه الدنيا حياة دائمة، وأن بعد هذه الأعمال جزاءً عادلاً، وانساق وراء شياطين الإنس والجن، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ

يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١١٢]؛ فاستباح هَتْك الحُرُمات، واحتكم إلى الأهواء والطواغيت، وانطلق في دروب الشهوات والمنكرات، وعاش باغيًا طاغيًا، لا يُوفِّي للضعيف حقًّا ولا مرحمة، وذليلاً خائفًا لا يُوفِّي لنفسه عزًّا ولا كرامة، يخنع ويركع أمام الطاغوت العاتي بقلبه أو بجبهته، ويستعلي على الضعيف المستكين ببَغْيه وسلطانه وجاهه، إن هذا المجتمع أشبه بغابة الوحوش، أو حظيرة الحيوان، إنه أحطُّ منها، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: ١٢].

إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء أضرى من الحيوانات الكاسرة، وأشرس من الكلاب المسعورة، يَلَغُون في الدماء، ويخوضون في الخبائث والأقذار، ويعتقدون أن هذه هي متعتُهم التي إن فاتتْهم، فلن تُستعاض؛ لأنهم زعموا أن لن يُبْعَثوا، وأن ليس بعد هذه الحياة من حياة، {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [الأنعام: ٢٩]؛ اهـ.

وقال الله - تعالى - عنهم كذلك: {وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الرعد: ٥]، فحكم الله عليهم بثلاثة أحكام جزاء إنكارهم للبعث، وقولهم: {أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}.

أما الحكم الأول: فقوله - تعالى -: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ}، وتأمَّل كيف جعل الكفر بالبعث كفرًا بالربِّ.

والحكم الثاني: {وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ}.

والحكم الثالث: {وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

فالمؤمن يعتقد اعتقادًا جازمًا أن الدنيا ما هي إلا دارُ اختبار وامتحان، وأن الآخرة هي دار الجزاء والوفاء، وأن وجودَه في هذه الدنيا إنما هو إلى أجل مسمًّى، كما قال - تعالى -: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: ٣٤].

والله - تعالى - أخبر آدم - عليه السلام - بهذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى التي هبط فيها إلى الأرض، وأعلمه أن هذه الأرض ليست دار الخلود، ولا الاستقرار الدائم، إنما هو استقرار ومتاع مؤقت، قال - تعالى -: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} [الأعراف: ٢٤، ٢٥].

لكن لَمَّا طال الأَمَد على البشر قَسَت قلوبهم، ونسوا هذه الحقيقة، وانحرفوا عن المنهج، وضلوا الطريق، فقالوا: لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا جنة، ولا نار، وإنما هي حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما

نحن بمبعوثين، كما أخبر عنهم رب العالمين في كتابه الكريم، فقال عنهم: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [التغابن: ٧]، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} [سبأ: ٣]، {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ} [يونس: ٥٣].

والآيات والأحاديث على إثبات البعث والنشور، والجزاء والحساب كثيرة، لا ينكرها إلا جاحد، ولا يردُّها إلا كافر.

فوائد الحديث عن اليوم الآخر:

١- الإيمان باليوم الآخر يُحْيِي في نفوس المؤمنين معاني الصبر والرضا والاحتساب، فالمؤمن يعلم أن الدنيا دار بلاء، وليست دارًا للجزاء أو النعيم، فإذا أصيب ببلاء يتعزَّى بالصبر والاحتساب، ويعلم أن الله يُوفِّي الصابرين أجرَهم بغير حساب، فيرضى بثواب الله، ويُسلِّم لقدر الله؛ فهو في خير دائم، كما جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن))، وهذا مُشاهَد بالعيان فضلاً عن الدليل والبرهان.

- فأهل الدنيا وعُبَّاد الشهوات إذا أصيبوا ببلاء؛ كمرض، أو سجن، أو فقر، تراهم في غاية الجزع والهلع؛ لضعف الإيمان بالآخرة.

٢- الإيمان باليوم الآخر يُحْيِي في النفوس معاني العفو عن الظالم، وقبول الأعذار، وكذا يحيي معاني التضحية، والبذل، والإنفاق؛ لأن مَن أيقن بالخلف جاد بالعطية، وكلما ازداد الإيمان بالآخرة، ازدادت هذه العبادات وضوحًا؛ ولذا كان الصحابة - رضي الله عنهم - قادة وأئمة يُهتَدَى بهم في البذل، والإنفاق، والتضحية، والعفو، فهذه صفات المحسنين المتقين، المؤمنين باليوم الآخر.

٣ - الإيمان باليوم الآخر يجعل القلب لا يتعلَّق بالدنيا؛ لعلم صاحبه أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا، وهذا ما يعرف بالزهد، وهو عبارة عن الرغبة عن الشيء لاستحقاره واستقلاله، والرغبة فيما هو خيرٌ منه، والنبي - صلى الله عليه وسلم - بيَّن لنا الفارق بين نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة، فقال - صلى الله عليه وسلم - كما في صحيح مسلم: ((ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعل أحدُكم أصبعَه في اليم، فلينظر بمَ يرجع))، وهذا يجعلنا نردِّد مع النبي - صلى الله عليه وسلم - قولَه: ((اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة)).

٤ – ذكر اليوم الآخر يُطهِّر القلوب من الحسد والفُرْقة والاختلاف.

٥ – ذكر اليوم الآخر يُهدِّد الظَّلَمة ليكفُّوا ويرتدعوا، ويعزِّي المظلومين ليسكنوا، فالكل سيأخذ حقَّه لا محالة، حتى يُقَادَ للشاة الجَلْحَاء من الشاة القرناء، فلا ظلم ولا هضم.

٦ – ذكر اليوم الآخر يمسحُ على قلوب المستضعفين والمضطهدين والمظلومين مسحة يقين، تسكن معه القلوب؛ لأنهم يتطلعون لِمَا أعدَّه الله للصابرين، من نعيم يُنسَى معه كل ضرٍّ وبلاء، وسوء وعناء، ويهوِّن عليهم ويعزِّيهم، وما أعدَّه الله للظالمين من بؤس يُنْسَى معه كل هناء.

٧ – الإيمان باليوم الآخر يجعل المسلم له هدف يصبو إليه، فهو يأمل دخول الجنَّة، ويسعد برؤية وجه الله الكريم، ويكون بصحبة النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، فهو يطمع في النعيم المقيم والخلود الأبدي، بخلاف مَن لا يؤمن باليوم الآخر، فليس له غاية يصبو إليها، فجنته هي دنياه، كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: ((الدنيا سجن المؤمن، وجنَّة الكافر))؛ (مسلم عن أبي هريرة).

٨ – ذكر اليوم الآخر يجعل أهل الغفلة ينتبهون من غفلتِهم، ويجعل أهل المعصية يتوبون ويرجعون، فأصل المصائب وأساس الذنوب والمعايب، هو الغفلة عن اليوم الآخر.

يقول الحارث المحاسبي – رحمه الله –: "ما من أحدٍ يعصي ربه – عز وجل – إلا وهو ناسٍ للحسابِ ومقاساةِ الأهوال، وإني أحذِّركم وأحذِّرُ نفسي من يومٍ آلَى اللهُ على نفسه ألاَّ يترك عبدًا حتى يسأله عن عملِه كله، دقيقه وجليله، سرِّه وعلانيته".

٩ – ذكر اليوم الآخر طمأنينة للقلب، وراحة للبال.

يقول الدكتور عائض القرني – حفظه الله – في كتابه "لا تحزن" (ص ٤٧):

"أيها الأخ الكريم، إن جُعْت في هذه الدار، أو افتقرت، أو حزنت، أو مرضت، أو بخست حقًّا، أو ذقت ظلمًا، فذكِّر نفسَك بالنعيم المقيم في جنات رب العالمين، إنك إن اعتقدتَ هذه العقيدة، وعَمِلتَ لهذا المصير، تحوَّلَت خسائرك إلى أرباح، وبلاياك إلى عطايا، إن أعقل الناس هم الذين يعملون للآخرة؛ لأنها خير وأبقى، وإن أحمقهم الذين يرون أن هذه الدنيا هي قرارهم ودارهم ومنتهى أمانيهم، فتجدهم أجزع الناس عند المصائب، وأندمهم عند الحوادث؛ لأنهم لا يرون إلا حياتهم الزهيدة الحقيرة، لا ينظرون إلا إلى هذه الفانية، لا يتفكرون في غيرها، ولا يعملون لسواها، فلا يريدون أن يعكِّر لهم سرورهم، ولا يُكدَّر عليهم فرحهم، ولو أنهم خلعوا حجاب الرانِ عن قلوبهم، وغطاء الجهل عن عيونهم، لحدَّثوا أنفسهم بدار الخلد ونعيمها، ودُورها وقصورها، ولسَمِعوا وأَنصَتوا لخطاب الوحي في وصفها، إنها والله الدار التي تستحق الاهتمام والكدَّ والجهد، وهل تأملنا طويلاً في أهل الجنَّة بأنهم لا يمرضون، ولا يحزنون، ولا يموتون، ولا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، في غرف يُرَى ظاهرها من

باطنها، وباطنها من ظاهرها، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، يسير الراكب في شجرة من أشجارها مائة عام لا يقطعها، طول الخيمة فيها ستون ميلاً، أنهارها مطردة، قصورها منيفة، قطوفها دانية، عيونها جارية، سُرُرها مرفوعة، أكوابها موضوعة، نَمَارِقُها مصفوفة، زَرَابِيُّها مبثوثة، عظم حبورها، فاح عَرْفها، منتهى الأماني فيها، فأين عقولنا ألا تفكِّر؟! ما لنا لا نتدبر؟ إذا كان المصير إلى هذه الدار، فلتخففِ المصائبُ على المصابين، ولتقرَّ عيون المنكوبين، ولتفرح قلوب المعدومين؛ اهـ.

فهيَّا لِنَعِشْ معًا هذه الرحلة - رحلة إلى الدار الآخرة - والتي قال عنها رب البرية: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجنَّة فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥]؛ فالناظر في الآية يرى أن الرحلة تبدأ بالموت، وتنتهي بجنة نعيمُها مقيم، أو نارٍ عذابُها أليم، لكن بين البداية والنهاية مواقف عظيمة، ومشاهد مهولة، يشيب لها الولدان، وهذه المشاهد يبيِّنها لنا رب العالمين في كتابه الكريم، وأكثر لنا من ذكرها الرسول الأمين - صلى الله عليه وسلم - وهذه المشاهد وتلكم المواقف تحيي القلوب الموات، وتوقظ الضمائر النائمة، فهيا لنبدأ معًا الكلام عن هذه الرحلة والتي تبدأ بالموت.

- المراد بالموت: "هو انقطاع تعلُّقِ الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدُّل حال، وانتقال من دار إلى دار"؛ (التذكرة للقرطبي: ص ٤).

ذكر الأزهري عن الليث أنه قال: "الموت ضد الحياة، والاسم منه: الميتة"، وحكى الجوهري عن الفراء أنه قال: "يقال لِمَن لم يَمُت: إنه مائتٌ عن قليل، ولا يُقال لِمَن مات: هذا مائت".

وكلمة: "مَيِّت" تطلق على مَن مات، ومَن سيموت، قال - تعالى -: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ} [الزمر:٣٠]، ويقال في الجمع: قوم "موتى، وأموات، وميِّتون".

- ويُطلَق الموت على كلِّ ما سكن بعد حركة، فيقال: "ماتت النار موتًا": إذا بَرد رمادها، فلم يبقَ من الجمر شيء، ويقال: "ماتت الرِّيحُ"؛ أي: رَكَدت وسَكَنت، ويُقال: "ماتت الخَمْرُ"؛ أي: سكن غليانها؛ (لسان العرب: ٥٤٧/٣).

والأرض المَيْتَةُ: هي الأرض الجدباء التي لا زرع فيها ولا ماء، {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا} [يس: ٣٣]؛ أي: دبَّت فيها الحركة؛ كما قال - تعالى -: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فصلت: ٣٩].

والممات: مصدر بمعنى الموت، قال - تعالى -: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢].

وللموت معانٍ كثيرة؛ منها:

مترادفات الموت:

يقال للموت: "مَنِيَّة"؛ (بفتح الميم، وكسر النون، وتشديد الياء المفتوحة).

ويُقال له: "المَنُون"؛ (بفتح الميم، وضم النون مخفَّفة).

وهي في الأصل صيغة مبالغة من: "مَنَّ"، بمعنى: قطع.

فالموت منونٌ؛ أي: كثير القطع؛ لأنه يقطع أسباب الحياة.

قال - سبحانه وتعالى -: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [الطور: ٣٠]؛ أي: حلول الموت وحدوثه؛ (القاموس القويم - مجمع البحوث الإسلامية ج٢).

ويقال له: "حِمام" (بكسر الحاء).

ويقال له: "سام"، ومنه قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - لليهود: ((وعليكم السام))؛ أي: (الموت)، حينما قال اليهودي للرسول - صلى الله عليه وسلم -: ((السام عليكم)).

ويقال له: "مَنى"؛ (بفتح الميم مع القصر).

ويقال له: "شَعُوب"؛ (بفتح الشين، ممنوع من الصرف)؛ لأنه صار علَمًا على المنيَّة.

وسُمِّي الموت أو المَنِيَّة: "شَعُوب"؛ لأنه أو لأنها: "تَشْعَب الخلائق"؛ أي: تفرِّقها.

قال نافع بن لقيط الأسدي في "بحر الكامل":

ذَهَبتْ شَعُوبُ بأهْلِه = إن المَنايا للرجالِ شَعُوبُ

ويقال له: "حَيْن" (بفتح الحاء وسكون الياء)، فيقال: "نزل بفلان الحَيْنُ"؛ أي: الموت والهلاك.

ومن معاني "المَوْت والمَنِيَّة"، ما يطلق عليه: "أم قَشْعَم"؛ (بفتح القاف والعين، مع شين معجمة ساكنة بينهما).

قالوا عن الموت:

يقول القرطبي - رحمه الله - في كتابه "التذكرة" (ص٢٤):

"اعلم أن الموتَ هو الخَطْب الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس التي طعمُها أكره وأبشع، وأنه الهاذم للذَّات، والأقطع للراحات، والأجلب للكريهات، فإن أمرًا يقطع أوصالك، ويفرق أعضاءك، ويهدم أركانك، لهو الأمر الفظيع، والخطب الجسيم، وإن يومَه لهو اليوم العظيم"؛ اهـــ.

قال البيهقي - رحمه الله - كما في كتابه "الزهد الكبير" (ص٢٥٤):

"الموتُ كسوفُ قمرِ الحياة، وخسوفُ شمسها، وهو ليومِ الحياة مساء، والمحسن والمسيء فيها سواء، وهو منتهى راحة قوم، ومبتدأ عذاب آخرين، والموت بين الدنيا والآخرة جسرٌ، لكل أحدٍ معبر عليه، والموت وإن كان للحياة الفانية آخرًا، فهو للحياة الباقية أولاً وصدرًا".

فالموت ليس نهاية المطاف، إنما هو بداية الرحلة الأبدية.

ولو أنَّا إذا مِتنا تُركنا = لكان الموتُ غايةَ كلِّ حيِّ

ولكن إذا متنا بُعِثنا = ونُسألُ بعدَه عن كل شَيِّ

ولذلك قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الذي أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن عفان - رضي الله عنه -: ((القبر أولُ منازل الآخرة)).

حقيقة الموت:

ظن البعض في الموت ظنونًا كاذبة، وأوهامًا باطلة:

فظن البعض: أن الموت هو العدم، وأنه لا حشر ولا نشر، ولا عاقبة للخير والشر.

وظن البعض الآخر: أن الميت سيُبعَث، ولكن لا يتنعم بثواب، ولا يتألم بعقاب.

وقال آخرون: "إن الروح باقية لا تنعدم بالموت، وإنما يفنى الجسد، ولا يبعث ولا يحشر، وكل هذه ظنون فاسدة وباطلة"، بل الذي تشهد له طرق الاعتبار، وتنطق به الآيات والأخبار، أن الموت ليس بعدمٍ محض، ولا فناء صرف، وقد عرَّف القرطبي - رحمه الله - الموت كما مرَّ بنا فقال: "إنما هو انقطاعُ تعلُّق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدُّل حال، وانتقال من دار إلى دار"؛ اهـــ، (التذكرة: ص ٤).

فالروح باقية بعد مفارقة الجسد، وتعاد إليه مرة أخرى في القبر للسؤال والحساب؛ قال - تعالى -: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [التغابن: ٧].

يقول ابن القيم - رحمه الله - كما في كتابه "الروح" ص ٩٩: "إن الله - عز وجل - جعل لابن آدم ميعادين وبعثين، يَجْزي فيهما للذين أساؤوا بما عَمِلوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فالبعث الأول: مفارقة الروح للبدن، ومصيرها إلى دار الجزاء الأول (القبر).

والبعث الثاني: يوم يردُّ الله الأرواحَ إلى أجسادها، ويبعثها من قبورها إلى الجنَّة أو النار، وهو الحشر الثاني"؛ اهـــ.

فالموت: انتقال من دارٍ إلى دار، ونحن خُلِقنا للأبد، لكنَّا نُنقل من دار إلى دار؛ حتى يستقر بنا القرار في جنة نعيمها مقيم أو ضده، نسأل الله الجنَّة، ونعوذ به من النار.

وقال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: "إنما خلقتم للأبد، وإنما تُنقلون من دار إلى دار"؛ (حلية الأولياء: ٥/٢٨٧).

الموت صفة وجودية وليس عدمًا:

قال ابن أبي العز الحنفي في "شرح الطحاوية" (ص ١٢٦):

"الموت صفة وجودية، خلافًا للفلاسفة ومَن وافقهم؛ قال - تعالى -: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: ٢]، والعَدم لا يوصف بكونه مخلوقًا.

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((يؤتَى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح، فيُذبَح بين الجنَّة والنار))، وهو وإن كان عرضًا، فالله - تعالى - يجعله عينًا، كما ورد في العمل الصالح: "أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة"، (وفيه حديث عند الإمام أحمد عن البراء).

وورد في القرآن[٢]: "أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون..."، الحديث؛ (ابن ماجه)، الحديث أخرجه أيضًا الإمام أحمد وفيه: ((وإن القرآن يَلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب))، وورد في الأعمال: "أنها توضع في الميزان"، والأعيان هي التي تقبل الوزن دون الأعراض.

وورد في "سورة البقرة وآل عمران": أنهما يوم القيامة: ((يُظِلان صاحبهما كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فِرْقان من طير صوافَّ))، وفي "الصحيح": ((إن أعمال العباد تصعد إلى السماء))؛ قال الحسن - رحمه الله - في قوله: {أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ} [الإسراء: ٥١]، قال: الموت.

قال الشنقيطي - رحمه الله - في "أضواء البيان" (٣٨٨/٨):

"الآية تدل على أن الموت أمر وجودي لا عدمي كما زعم الفلاسفة؛ لأنه لو كان عدميًّا، لما تعلق به الخَلْق".

- **الموت يُسمَّى بالقيامة الصغرى:**

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر في كتابه "القيامة الصغرى" (ص ١٣ - ١٤): "القيامة الصغرى هي الموت، فكل مَن مات فقد قامت قيامته، وحان حَيْنُه"، ففي "صحيح البخاري ومسلم" عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "كان رجالٌ من الأعراب جفاة يأتون النبي - صلى الله عليه وسلم - فيسألونه متى الساعة، فكان ينظر إلى أصغرهم، فيقول: إن يعش هذا، لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم".

قال ابن كثير - رحمه الله - كما في "البداية والنهاية" (٢٤/١):

والمراد انخرام قَرْنِهم، ودخولهم في عالم الآخرة، فإن مَن مات، فقد دخل في حكم الآخرة، وبعض الناس يقول: "مَن مات فقد قامت قيامته"، وهذا الكلام بهذا المعنى صحيح؛ اهـ.

وقد أشار ابن كثير - رحمه الله - إلى أن هذا القول يقوله الفلاسفة، ويريدون به معنى فاسدًا، فإن الملاحدة يرون أن الموت هو القيامة، ولا قيامة بعدها.

قال ابن كثير - رحمه الله - كما في "البداية والنهاية" أيضًا: "وقد يقول هذا بعض الملاحدة، ويشيرون به إلى شيء آخر من الباطل، فأما الساعة العظمى، وهي وقت اجتماع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فهذا ما استأثر الله بعلم وقته".

---

٢ قوله: وورد في القرآن؛ أي: ورد في شأن القرآن؛ أي: في شأن قراءة العبد، والمقصود في الحديث، أن عمل الإنسان يأتيه، وأُطلق على القراءة التي هي أفعال العباد قرآنًا، وليس المراد بالقرآن هنا: المكتوب بين دفتي المصحف، ويدل على أنه ليس المراد نفس القرآن: تعدُّدُ المجيء، ويلزم منه الثواب؛ (انظر مجموع الفتاوى: ٧٩/١٢).

وقفات:

الوقفة الأولى: إن الذين لا يؤمنون بالآخرة، وعندهم أنه لا حياة ولا نعيم إلا في الدنيا، حالهم كما قال رب العالمين: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ} [البقرة: ٩٦].

وقال بعض الملاحدة:

خُذْ منَ الدنيا بحظٍّ = قبل أن تُنقَل عنها

فهي دارٌ ليس تلقى = بعدَها أطيبَ منها

الوقفة الثانية: هناك نوعٌ من أنواع الموت، وهو موت القلوب، وهو أشد وأعظم خطرًا من موت الأبدان؛ لأنه إذا مات البدن انقطع الإنسان عن الدنيا، أما موت القلب، فهو انقطاعٌ عن الدنيا والآخرة.

وكان بعض السلف يقول: "عجبًا للناس يبكون على مَن مات جسده، ولا يبكون على مَن مات قلبه، وهو أشد".

وانظر إلى قول النبي - صلى الله عليه وسلم - الثابت في صحيح البخاري: ((مَثَل الذي يذكر ربَّه والذى لا يذكر ربَّه مثلُ الحي والميت)).

فهذا الإنسان جسده قبرٌ لقلبه، كما قال بعضهم:

فنسيانُ ذكرِ اللهِ موتُ قلوبِهم = وأجسامُهُم قبلَ القبورِ قبورُ

وأرواحُهُم في وحشة من جسومهم = وليسَ لهم حتى النشورِ نشورُ

ولما وصف الله - تعالى - الكافرين في كتابه الكريم وصفهم بالأموات؛ قال - تعالى -: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [فاطر: ٢٢]، وقال - تعالى -: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٢]؛ فالله - عز وجل - سمَّاهم أمواتًا؛ لأن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية، والنعيم السرمدي في جنة الخلد، وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية؛ لذا فهو موت.

أما الإيمان، فهو اتصال واستمداد واستجابة؛ لذا فهو حياة، ولذلك قدَّم الله في سورة الرحمن ذكر القرآن على خلق الإنسان؛ فقال - تعالى -: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ} [الرحمن: ١ - ٣]، وهذا له معنى، وهو أنه لا قيمة للإنسان بدون إيمان، فبه تحيا القلوب والأبدان، وقال صالح المري: دخلتُ على الحسن يومًا، فوجدته ينشد:

ليس مَن مات فاستراح بميتٍ = إنما الميتُ ميِّتُ الأحياءِ

إنما الميتُ مَن تراه كئيبًا = كاسفًا باله قليل الرجاءِ

هناك نوع من أنواع الموت يُسمَّى بالموتة الصغرى، وهو النَّوْم، فالنوم شبيه الموت؛ ولذلك يسميه العلماء بـــ: (الموتة الصغرى)، فالنوم وفاة، والقيام من النوم بعثٌ ونشور، كما قال - تعالى -: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} [الأنعام: ٦٠]، وقال - تعالى -: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر: ٤٢].

ففي قوله - تعالى -: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}؛ أي: يقبضها عند حضور أجلها، ويخرجها من الأبدان.

{وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}؛ أي: ويتوفَّى الأنفسَ التي لم تَمُت؛ أي: لم يحضر أجلُها، يتوفَّاها في منامها؛ {فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ}، ولا يردها إلى الجسد الذي كانت فيه، {وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى}، وهي النائمة بأن يُعيد عليها إحساسها"؛ (زبدة التفسير: ص ٦١٢).

وهذا يعني أنه في حالةِ إمساك الروح تكون الوفاة الكبرى، وفي حالة إرسالها، فهي الوفاة الصغرى.

ويدل على هذا أيضًا الحديثُ الذي أخرجه البخاري عن عبدالله بن أبي قتادة، عن أبيه قال: "سِرْنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ليلةً، فقال بعض القوم: لو عرَّست بنا يا رسول الله، قال: ((أخاف أن تناموا عن الصلاة))، قال بلال: أنا أوقظكم فاضطجعوا، وأسند بلال ظهره إلى راحلته، فغلبتْه عيناه فنام، فاستيقظ النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد طلع حاجب الشمس، فقال: ((يا بلال، أين ما قلت؟))، قال: ما أُلقيت عليَّ نومةٌ مثلها قط، قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردَّها عليكم حين شاء، يا بلال، قم فأَذِّن بالناس بالصلاة فتوضأ، فلما ارتفعت الشمس وابيضَّت، قام فصلَّى)).

ويدل على هذا أيضًا ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إذا أوى أحدُكم إلى فراشِه، فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعتُ جنبي وبك أرفعه، إن أمسكتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)).

وجاء في "البخاري ومسلم" من حديث حذيفة - رضي الله عنه - قال: "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أخذ مضجعَه من الليل، وضع يده تحت خده، ثم يقول: ((باسمك اللهم أحيا وأموت))، وإذا استيقظ قال: ((الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور)).

وأخرج البزار والطبراني في "الأوسط" والبيهقي عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - قال: "يا رسول الله، أينام أهل الجنَّة؟ قال: ((لا، النومُ أخو الموت، وأهل الجنَّة لا يموتون، ولا ينامون))، وهذا الكلام السابق يُفسِّر لنا قوله - تعالى -: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: ٥٥].

قال ابن كثير في " تفسيره" ما ملخصه:

"اختلف المفسِّرون في قوله - تعالى -: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}:

١ - فقال قتادة وغيره: هذا من المُقدَّم والمُؤخَّر؛ تقديره: "إني رافعك إليَّ ومتوفيك"؛ يعني: بعد ذلك.

٢ - وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}؛ أي: مُميتك.

٣ - وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هنا: النوم؛ كما قال - تعالى -: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ} [الأنعام:٦٠]، وقال - تعالى -: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قام من النوم قال: ((الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا))؛ (جزء من حديث حذيفة، رواه البخاري).

٤ - وقال الحسن في قوله - تعالى -: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}؛ يعني: وفاة النوم، رفعه الله في منامه؛ اهـ.

وذكر ابن جرير - رحمه الله - في تفسيره "جامع البيان" (٦/١٦١) في أن: المراد بالتوفِّي هو نفس الرفع، والمعنى: إني قابضُك من الأرض، ومستوفيك ببدنك وروحك، وينسب هذا التفسير إلى ابن زيد.

والراجح: هو قول الجمهور، والذي اختاره ابن كثير، ورواه الحسن وغيره من أهل العلم، والذي يفسِّر الوفاة بالنوم.

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في "التلخيص الحبير" (ص ٣١٩):

"وأما رفع عيسى - عليه السلام - فاتَّفق أصحاب الأخبار والتفسير على أنه رفع ببدنه حيًّا"، وقال في "الفتح" (٦/٢٦٧): "إن عيسى رُفِع وهو حي على الصحيح".

وقال الإمام أبو حيان في "تفسيره" المطبوع على "البحر المحيط" (٢/٤٧٣): "وأجمعت الأمة على أن عيسى - عليه السلام - حي في السماء".

وقال ابن عطية الغرناطي: "وأجمعتِ الأمةُ على ما تضمَّنه الحديث المتواتر من أن عيسى في السماء حي".

• عيسى - عليه السلام - رُفِعَ إلى السماء حيًّا ببدنه وروحه، كما في قول الله - تعالى -: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

قال الشيخ الهرَّاس - رحمه الله -: "وكيف يتوهَّم متوهِّم أن المراد بقوله - تعالى -: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} هو رفع روحه؟ وهو إنما ذكر لإبطالِ ما زعموه من قتله وصَلْبه، ورفع الروح لا يبطل القتل والصلب، بل يجامعهما، فإنهم لو قتلوه فرضًا لرُفِعت روحه إلى الله، على أن في إخبارِه - عز وجل - بأنه رفعه إليه ما يشعر باختصاصه بذلك، والذي يمكن أن يختص به عيسى هو رفعه حيًّا بجسده وروحه؛ لأن أرواح جميع الأنبياء - بل المؤمنين - تُرفَع إلى الله بعد الموت، لا فرق بين عيسى وغيره، فلا تظهر فيه الخصوصية، ثم ختم الآية بقوله: {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}، يدل على أنه مشهد تجلَّت فيه عزة الله وحكمته، ولا يتم ذلك إلا حيث يكون المشهد غريبًا مثيرًا، فأي غرابة أو إثارة في موته، ثم رفع روحه، وهو كما قلنا عام في جميع المؤمنين؛ (فصل المقال في رفع عيسى - عليه السلام - ونزوله وقتله الدَّجَّال، للشيخ محمد خليل هرَّاس: ص ١٣).

وقال الشوكاني - رحمه الله - في "فتح القدير" (١/٣٤٤): "إنما احتاج المفسِّرون إلى تأويل الوفاة بما ذكر؛ لأن الصحيح أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة، كما رجَّحه كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير الطبري، ووجهُ ذلك أنه قد صحَّ في الأخبار عن النبي - صلى الله عليه وسلم - نزولُه وقتله الدَّجَّال.

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((الأنبياء إخوة لعلاَّت[3]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإني أَوْلَى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن نبي بيني وبينه، وإنه نازل فاعرفوه: رجل مربوع[4] إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصَّران[5]، كأن رأسه يقطر وإن لم يُصِبه بللٌ، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجِزْيَة، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويُهْلِك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويُهلِك الله في زمانه المسيح الدَّجَّال، ثم تقع الأمانة[6] على

---

[3] علات؛ أي: ضرائر؛ (الفتح - ٦/٤٨٩).

[4] مربوع؛ أي: معتدل القامة بين الطويل والقصير.

[5] ممصَّران؛ أي: فيهما صُفْرة خفيفة.

[6] الأمانة؛ أي: الأمنة والسلام.

الأرض، حتى ترتع[7] الأُسُود مع الإبل، والنِّمَار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيَّات لا تضرُّهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يُتوفَّى ويُصلِّي عليه المسلمون)).

قال ابن الأثير في النهاية: (٣/٢٩١): "أولاد العلاَّت: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد، وأراد أن إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة".

وأحاديث نزول عيسى ابن مريم - عليه السلام - من السماء وقتله للدجال متواترة تواترًا معنويًّا، وممَّن صرَّح بتواترها: العلاَّمة الطبري، والنووي، والقاضي عِياض، وابن حجر، وابن تيمية، وابن القيم، والذهبي، وابن كثير، والعلاَّمة الأُبِّي، وابن عطية، وأبو حيان الأندلسي، والشوكاني، والألوسي، ومحمد صديق حسن خان، ومحمد حبيب الله الشنقيطي، والسفَّاريني، والكتاني، والكشميري، والألباني، والشيخ أحمد شاكر، والكوثري، والغماري.

وقال الطحاوي:

"ونُؤمِن بخروج الدَّجَّال الأعور العين، ونزول عيسى ابن مريم - عليه السلام - من السماء"... إلى أن قال: "والإيمان بأن المسيح الدَّجَّال خارج مكتوب بين عينيه كافر، والأحاديث التي جاءت فيه، والإيمان بأن ذلك كائن، وأن عيسى ابن مريم - عليه السلام - ينزل فيقتله بباب لُدٍّ"؛ (شرح الطحاوية ص ٤٩٩).

ويقول أبو الحسن الأشعري في "مقالات الإسلاميين" ص ٣٤٥: "ويصدِّقون - أهل السُّنَّة - بخروج الدَّجَّال، وأن عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام - يقتله".

ويقول الآجري في كتابه "الشريعة":

"باب الإيمان بنزول عيسى ابن مريم - عليه السلام - حَكَمًا عدلاً، فيقيم الحق ويقتل الدَّجَّال"، قال: "والذين يقاتلون مع عيسى - عليه السلام - هم أمةُ محمد - صلى الله عليه وسلم - والذين يقاتلون عيسى هم اليهودُ مع الدَّجَّال، فيقتل عيسى الدَّجَّالَ، ويقتل المسلمون اليهودَ، ثم يموت عيسى ويصلِّي عليه المسلمون، ويدفن مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ومع أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما".

وقال السفاريني في "لوامع الأنوار البهية" (٢/٩٤):

[7] ترتع؛ أي: تلعب.

"ومنها - أي من علامات الساعة العظمى - العلامة الثالثة: أن ينزل من السماء المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - ونزوله ثابت بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة"، ثم قال: "وأما الإجماع، فقد أجمعت الأمة على نزوله، و لم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة ممَّن لا يُعتدُّ بخلافه".

تنبيهان:

١ - يلي قولَ الجمهور في الصحة قولُ قتادة - رحمه الله -: وهو أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، والتقدير: "إني رافعك ومتوفيك"؛ أي: بعد النزول.

٢ - لا.. لابن حزم، ولمحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، والشيخ شلتوت:

• ولا التفات إلى ما ذهب إليه ابن حزم - رحمه الله - في "المحلى" (٢٨/١): "وقوله بموت عيسى ورفعه وقوفًا مع لفظ: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران:٥٥]"، فهو - رحمه الله - لم يخالف في الرفع، وإنما خالف في الحياة.

• ولا التفات إلى قول محمد عبده، وتلميذه محمد رشيد رضا، والشيخ شلتوت {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}؛ أي: مميتك حتف أنفك، ثم أرفعك إليَّ، ونسب محمد عبده هذا القول إلى جمهور المفسِّرين؛ حتى نشرت جريدة "البشرى القاديانية"، التي تصدر في بيروت في عدديها (٥، ٦) أن الأزهر يعترف بوفاةِ المسيح الناصري، بناءً على فتوى الشيخ شلتوت التي نشرتها "مجلة الرسالة" في العدد (٤٦٢)، وقال فيها بموت عيسى - عليه السلام - وأنه ليس في القرآن الكريم ولا السُّنَّة المطهَّرة مستند يصلحُ لتكوينِ عقيدةٍ يطمئن إليها القلب بأن عيسى رُفِع بجسمه إلى السماء، وأنه حيٌّ إلى الآن فيها، وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض.

• ولا التفات لقول "صاحب المنار": "إن الدَّجَّال رمزٌ للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها، والأخذ بأسرارها وحكمها"؛ اهـ.

وهذا مخالف أشد المخالفة لكلام السلف من أئمة التفسير والمحدِّثين، ومنافٍ لعقيدة السلف.

• سؤال يبحث عن إجابة: هل في الجنَّة موت؟

الجواب: لا، وإذا كان الجواب بالنفي، فما معنى قوله - تعالى -: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [الدخان: ٥٦]؟

قال ابن الجوزي - رحمه الله - في "زاد المسير" (٣٥١/٧ - ٣٥٢): "قوله - تعالى -: {إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} فيه ثلاثة أقوال:

أحدهما: أن {إِلَّا}، بمعنى "سوى"، فتقدير الكلام: لا يذوقون في الجنَّة الموت سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا، ومثله: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ} [النساء: ٢٢]؛ بمعنى: سوى ما قد فعل آباؤكم؛ (هذا قول الفراء والزجَّاج).

والثاني: أن السعداء حين يموتون يصيرون إلى الرَّوح والرَّيْحان، وأسباب من الجنَّة يَرَوْن منازلهم منها، وإذا ماتوا في الدنيا، فكأنهم ماتوا في الجنَّة؛ لاتصالهم بأسبابها، ومشاهدتهم إياها؛ (قاله ابن قتيبة).

الثالث: أن "إلا" بمعنى "بَعْد" كما ذكرنا في أحد الوجوه في قوله: {إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ} [النساء: ٢٢]؛ (وهذا قول ابن جرير)؛ اهـ.

وقال ابن كثير - رحمه الله - في "تفسيره":

وقوله: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} [الدخان: ٥٦]، هذا استثناء يؤكِّد النفي، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدًا، كما ثبت في "الصحيحين" أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((يُؤتَى بالموت في صورة كبشٍ أملح، فيُوقَف بين الجنَّة والنار، ثم يُذبَح، ثم يقال: يا أهل الجنَّة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت))، الموتُ حق على الجِنِّ والإنس.

قال الشيخ عمر سليمان الأشقر - رحمه الله - كما في "القيامة الصغرى" (ص ١٨): "الموت حتم لازم، لا مناصَ منه لكل حي من المخلوقات؛ كما قال - تعالى -: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٨٨]، وقال: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٢٦ - ٢٨]، ولو نجا أحدٌ من الموت لنجا منه خيرة الله من خلقه محمد - صلى الله عليه وسلم -: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: ٣٠]، وقد واسى الله رسولَه بأن الموت سنتُه في خلقه، {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} [الأنبياء: ٣٤].

وفي الحديث الذي أخرجه الطبراني في "الأوسط"، وأبو نعيم في "الحلية"، والحاكم في "المستدرك" وغيرهم عن علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((أتاني جبريل، فقال: يا محمد، عِشْ ما شئتَ فإنك ميِّت، وأحببْ مَن شئت فإنك مفارقُه، واعمل ما شئتَ فإنك مجزيٌّ به، واعلم أن شرفَ المؤمن قيامُه الليل، وعزَّه استغناؤه عن الناس))؛ (صحيح الجامع: ٧٣).

وجاء في كتاب "الزهد والرقائق" لابن المبارك (ص ٨٨) عن أبي الدرداء - أو أبي ذر - قال: "تُولَدون للموت، وتعمرون للخراب، وتحرصون على ما يفنَى، وتذرون ما يبقى".

• **فالموت حق على الإنس والجن:**

ففي "صحيح البخاري" عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: ((أعوذ بعزَّتك، الذي لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون))؛ اهـ.

فالموت عاقبة كل حي، وختام كل شيء، ونهاية كل موجود - سوى الرب المعبود - فالكل سيموت، إلا ذا العزَّة والجبروت، فالموت طالب لا يعجزه المقيم، ولا ينفلت منه الهارب، فهو قضاء نافذ، وحكم شامل، وأمر حاتم لازم، لا مهرب منه ولا مفر، وبعد الموت يُجازَى كلُّ إنسان مِنَّا بما عَمِلَ في هذه الحياة الدنيا؛ كما قال - تعالى -: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥]، وقال - تعالى -: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: ٣٥].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير هذه الآية: "نختبركم بالشدة والرخاء، والصحة والسَّقم، والغنَى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهُدَى والضلال؛ أي: لننظر كيف شكركم وصبركم، {وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}، لا إلى غيرنا فنجازيكم بأعمالكم"؛ اهـ.

وأخرج الإمام أحمد - بسند حسن - عن أنس - رضي الله عنه - قال: "لما قالتْ فاطمة ذلك، يعني لما وجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كرب الموت ما وجد، قالت فاطمة: واكرباه: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((يا بُنيَّة، إنه قد حضر بأبيك ما ليس الله بتاركٍ منه أحد لموافاة يوم القيامة))؛ (السلسلة الصحيحة: ١٧٣٨).

وكان الإمام أحمد يقول: "يا دار، تخربين ويموت سكانك".

وكتب سالم بن عبدالله بن عمر إلى عمر بن عبدالعزيز في رسالة له طويلة منها: "أما بعد، فإن الله - تبارك وتعالى - خلق الدنيا لما أراد، وجعل لها مدَّة قصيرة، فكان ما بين أولها إلى آخرها ساعة من النهار، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء، فقال: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٨٨]؛ (حلية الأولياء: ٥/٢٨٤).

إن الطبيبَ بطبِّه ودوائه = لا يستطيعُ دفاعَ نَحْبٍ قد أتى

ما للطبيبِ يموتُ بالداءِ الذي = قد كان أبرأَ مثلَه فيما مضى

مات المداوِي والمداوَى والذي = جلبَ الدواءَ وباعه ومَنِ اشترَى

للموت وقتٌ وأجلٌ محدَّد:

للموت وقتٌ يأتي فيه، فلا يستطيع أحدٌ أن يتجاوز الأجل الذي ضربه الله، وقد قدَّر الله آجال العباد، وجرى بذلك القلم في اللوح المحفوظ، وكتبتْه الملائكةُ الكرام - والمرءُ في بطن أمه - فلا يتأخَّر المرء عمَّا كُتِب له ولا يتقدَّم، وكل إنسان مات، أو قُتِل، أو غَرِق، أو سقط من طائرة أو سيارة، أو احترق...، أو غير ذلك من الأسباب، فإنه قد مات بأجله الذي قدَّره الله وأمضاه، وقد دلَّت على ذلك نصوص كثيرة، منها:

١ - قوله - تعالى -: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا} [آل عمران: ١٤٥].

٢ - وقال - تعالى -: {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا} [المنافقون: ١١].

٣ - وقال - تعالى -: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: ٣٤].

٤ - وقال - تعالى -: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} [الحجر: ٤، ٥].

٥ - ولو أن العبادَ استحقُّوا الهلاك والفناء بسبب ظلمهم، ما بادرَهم الله بذلك حتى يبلغوا منتهى أعمارهم، وغاية آجالهم، وفي ذلك يقول - سبحانه -: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل: ٦١]، وقال - تعالى -: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر: ٤٥]، وفي "صحيح مسلم" عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قالت أم حَبيبة زوجُ النبي - صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنها -: "اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية"، قال: فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((لقد سألتِ الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجِّل شيئًا قبل أجله، ولن يؤخِّر شيئًا بعد أجله، ولو كنتِ سألتِ اللهَ أن يُعيذَك من عذاب النار، وعذاب في القبر كان خيرًا وأفضل)).

فكل إنسان له أجل محدود، ورزق معلوم، لا يستطيع أن يتجاوزه بحال من الأحوال؛ لأنه قُدِّر عليه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وجرى بذلك القلم في اللوح المحفوظ، ففي "صحيح مسلم" عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشُه على الماء)).

وفي صحيح البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: حدَّثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق، قال: ((إن أحدكم يُجمَع في بطن أمه أربعين يومًا نُطْفة، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك، ثم مُضْغة مثل ذلك، ثم يرسل المَلَك فينفخ فيه الروح، ويؤمَر بأربع كلمات: بكَتْب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد)).

وأخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((وكَّل الله بالرحمِ مَلَكًا، فيقول: أي رب، نطفة، أي رب، علقة، أي رب، مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها، قال: أي رب ذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كل ذلك في بطن أمه)).

فمَن أتى أجلُه، فلا يزاد في عمره نَفَسٌ واحد؛ قال - تعالى -: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا} [مريم: ٨٤]، قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: "نعدُّ أنفاسهم في الدنيا"؛ (تفسير ابن كثير: ٣/١٣١).

إذا جاءت سكرة الموت فلا فوت:

يا ابن آدم، إذا نزل بساحتك الموت، فلا فوت، قال - تعالى -: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق: ١٩].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيرها:

يقول الله - تعالى -: وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق؛ أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه، {ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ}؛ أي: هذا هو الذي كنت منه تفر، قد جاءك فلا محيدَ ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

وفي قوله: {ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ} قولان:

أحدهما: أن "ما" ها هنا موصولة؛ أي: الذي كنت منه تحيد، بمعنى: تبتعد وتتناءَى وتفرُّ، قد حلَّ بك ونزل بساحتك.

القول الثاني: أن "ما" نافية، بمعنى: ذلك ما كنتَ تقدرُ على الفراق منه، ولا الحيد عنه.

والعبد لا يمكنه أن يدفع غائلةَ الموت عن نفسه مهما بلغ حرصُه على الحياة؛ ولذا عاب الله على أهل النفاق تثبيطَهم عن الجهاد، بزعمهم أن القعود عنه ينجِّي من الموت؛ فقال - سبحانه - في شأنهم: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران: ١٦٨]؛ فالموت لا ينجي منه هرب، ولا يغني عنه جزع، ولا يدفع عنه حذر، ولو تُحُصِّن

منه بالقصور المنيعة، والمساكن المشيَّدة، قال - تعالى -: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [النساء: ٧٨]، ولا ينجو منه فارٌّ، ولا يسلم منه مَن هرب، وقد أبان الله ذلك لليهود مع كراهيتِهم له وخوفهم منه؛ فقال الله لهم: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة: ٨]، وأنذر المنافقين بأن فرارَهم منه لا يزيد في أعمارهم، ولا يؤخِّر في آجالهم، بل بقاؤهم في الدنيا إلى قدرٍ مقدور، وأجل مكتوب، كما قال - سبحانه -: {قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب: ١٦]، وقال - تعالى -: {كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} [القيامة: ٢٦ - ٣٠]؛ قال ابن زيد: {التَّرَاقِيَ}: نفسه، وقال ابن جرير الطبري: إذا بلغت نفسُ أحدِهم التراقيَ عند مماته وخرج بها.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله - تعالى -: {مَنْ رَاقٍ}:

قال عكرمة: "هل من راقٍ يرقي؟"، وقال أبو قلابة: "هل من طبيبٍ شافٍ؟"، وقال ابن زيد: "قال أهله: مَن ذا يَرْقِيه ليشفيَه ممَّا قد نزل به، وطلبوا له الأطباء والمُداوِين، فلم يُغْنُوا عنه من أمر الله الذي قد نزل به شيئًا:

إن الطبيبَ له علمٌ يدلُّ به = ما كان للمرءِ في الأيام تأخيرُ

حتى إذا ما انتهتْ أيامُ رحلتِه = حار الطبيبُ وخانتْه العقاقيرُ

وكما قال علي زين العابدين بن الحسين:

وقد أتوْا بطبيبٍ كي يُعَالِجَني = ولَم أرَ الطبَّ هذا اليومَ ينفعُني

واشتدَّ نزعي وصار الموتُ يَجْذِبُها = من كلِّ عِرق بلا رِفْقٍ ولا هَوَنِ

واستخرجَ الروحَ مني في تَغَرْغُرِهَا = وصار في الحلقِ مرًّا حين غَرْغَرني

وسلَّ روحي وظلَّ الجسمُ منطرحًا = على الفراشِ وأيديهم تُقلِّبني

وقال آخرون في معنى {مَنْ رَاقٍ}: بل هذا من قول الملائكة بعضهم لبعض، يقول بعضهم لبعض: مَن يرقَى بنفسه فيصعد بها.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: "إذا بلغتْ نفسه، قالت الملائكة: مَن يصعد بها؟ ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب".

وقوله: {وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ}؛ أي: أيقن الذي قد نزل به أنه فراق الدنيا والأهل والمال والولد، وقال قتادة: "استيقن أنه الفراق"، وقال ابن زيد: "لا يدري يموت مِن ذلك المرض أو من غيره؟".

وقوله – تعالى –: {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ}، اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: والتفَّت شدة أمر الدنيا بشدة أمر الآخرة، (وهذا ما ذهب إليه مجاهد، وقتادة... وغيرهما).

وعن علي وابن عباس – رضي الله عنهم – في معناها: يعني: آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا مَن رحم الله.

وعن الضحَّاك قال: أهل الدنيا (الناس) يجهِّزون الجسد، وأهل الآخرة (الملائكة) يجهِّزون الروح.

القول الثاني: أن معنى ذلك: التفَّت ساقَا الميت إذا لُفَّتا في الكفن.

قال الحسن: لفهما في الكفن، هما ساقاك إذا لُفَّتا في الكفن.

القول الثالث: عُني بذلك: والتفَّ بلاء ببلاء، (وهو قول مجاهد).

والراجح: هو القول الأول، (قول عليٍّ وابن عباس – رضي الله عنهم).

قال ابن جرير – رحمه الله – "في تفسيره" (١٢/١٩٤ – ١٩٨):

"وأولَى الأقوال في ذلك بالصحة عندي قول مَن قال: معنى ذلك: والتفَّت ساق الدنيا بساق الآخرة، وذلك شدة كرب الموت، بشدة هول المطلع، والذي يدل على أن ذلك تأويلُه، قوله: {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ}، والعرب تقول لكل أمر اشتدَّ: قد شمَّر عن ساقه، وكشف عن ساقه، ومنه قول الشاعر:

إذا شَمَّرتْ لكَ عن ساقِها = فَوَيْهًا ربيع ولا تَسْأَمِ

فعَنَى بقوله: {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ}؛ أي: التصقت إحدى الشدتين بالأخرى، وقال – تعالى –: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة: ٨٣ – ٨٧].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٤/٣٠٠ – ٣٠١):

{فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ}؛ أي: الروح، {الْحُلْقُومَ}؛ أي: الحلق، وذلك حين الاحتضار؛ كما قال – تعالى –: {كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} [القيامة: ٢٦ – ٣٠]؛ ولهذا قال ها هنا: {وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ}؛ أي: إلى المحتضر، وما يكابده من سكرات الموت، {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ}؛ أي: بملائكتنا، {وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ}؛ أي: ولكن لا ترونهم، كما قال – تعالى –: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: ٦١].

وقوله - تعالى -: {فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة: ٨٦، ٨٧]، معناه: فهلاَّ تُرجِعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها في الجسد {إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ}، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: "يعني: محاسبين"، وروي عن مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك والسدي، وأبي حرزة مثله.

وقال سعيد بن جبير والحسن البصري - رحمهما الله -: {فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة: ٨٦، ٨٧]، غير مصدِّقين أنكم تدانون وتُبعَثون وتُجزَون، فرُدُّوا هذه النفس".

وقال مجاهد: {غَيْرَ مَدِينِينَ}: غير موقنين، وقال ميمون بن مهران: غير معذَّبين مقهورين.

• **إذا نزل بالإنسان الموت، وبلغت الروح الحلقوم، أُغْلِق بابُ التَّوبة:**

قال - تعالى -: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء: ١٧، ١٨].

ومعنى قوله - تعالى -: {ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ}؛ أي: ما كان دون الموت فهو قريب، وقال الحسن البصري - رحمه الله -: ما لم يُغَرْغِر؛ (جامع البيان لابن جرير الطبري (٨/٩) بتصرف).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن الله يقبل توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِر))؛ (صحيح الجامع: ١٩٠٣)؛ أي: ما لم تبلغِ الروحُ الحلقومَ.

وأخرج الإمام أحمد أيضًا، وابن ماجه من حديث بُسْر بن جحَّاش - رضي الله عنه -: "أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بَصَقَ يومًا في كَفِّهِ، فوضع عليها إصْبَعَهُ، ثم قال: ((قال الله - عز وجل -: ابن آدم، أنَّى تُعْجِزُني، وقد خَلَقْتُكَ من مِثْل هذِهِ؟ حتى إذا سوَّيتُك وعدلتُك، مَشَيت بين بُرْدينِ وللأرضِ منك وئيدٌ، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغتِ التراقيَ، قلتَ: أتصدَّق، وأنَّى أوانُ الصدقة؟))؛ (الصحيحة: ١١٤٣).

فعلى الإنسان المُفرِّط المُقصِّر أن يبادر بالتوبة والعمل الصالح قبل مجيء هذه اللحظة؛ فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((بادروا

بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدُّخان، أو الدَّجَّال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم[8]، أو أمر العامة[9])).

• **وقت الموت من الغيب الذي استأثر الله به:**

وقت الموت من الغيب الذي استأثر الله بعلمه؛ قال - تعالى -: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ٥٩]، وقال: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ٣٤].

وقد بيَّن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن هذه الخمس هي مفاتيح الغيب التي أخفاها عن عباده؛ فقد روى البخاري في "صحيحه" عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ٣٤]))؛ فالإنسان لا يعلم متى ينقضي أجلُه، وفي أي بقعة يكون مضجعه، أفي برٍّ أم في بحر؟ وفي سهل أم حزن، وقريب ذلك أم بعيد؛ كما قال - سبحانه -: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٨٥].

ولذلك دعا رب العالمين إلى المسارعة إلى المبادرة لفعل الطاعات، وعمل الخيرات قبل الممات؛ فقال - تعالى -: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣]، {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١]، {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} [البقرة: ١٤٨]، [المائدة: ٤٨].

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحثُّ على المبادرة بالطاعة، وبذل الصحة قبل حلول العلل، ومجاهدة النفس قبل حلول الأجل، ففي "صحيح البخاري" عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: "أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمنكبي، فقال: ((كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل))، وفي الحديث: ((خُذْ من صحتِك لمرضِك، ومن حياتِك لموتِك))، وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: "إذا أمسيتَ فلا تنتظرِ الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء"، وفي رواية عند

---

[8] خاصة أحدكم؛ أي: ما يخصه دون غيره، وأراد به الموت الذي يخصه.

[9] أمر العامة: المقصود به الساعة؛ أي: يوم القيامة؛ لأنها تعم الناس جميعًا.

الترمذي: "وعُدَّ نفسَك من أهل القبور"؛ والمعنى كما جاء في "تحفة الأحوذي"(٥١٥/٦): "استمرَّ سائرًا ولا تفترْ، فإنك إن قصرت، انقطعتَ وهلكت".

وقفة مع قوله - تعالى -: {... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ٣٤]:

فقد جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني في "الكبير" وأحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إذا أراد الله قبض عبدٍ بأرضٍ جعل له فيها حاجة))، (ولعل هذا خير شاهد لهذا الأثر الذي ذكره الغزالي في الإحياء: ج ١٤٩/٥)، عن الأعمش بن خيثمة قال: "دخل ملك الموت على سليمان بن داود - عليهما السلام - فجعل ينظر إلى رجلٍ من جلسائه يُدِيم النظر إليه، فلما خرج، قال الرجل لسليمان: مَن هذا؟ قال سليمان: هذا ملَك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إليَّ كأنه يريدني، قال سليمان: فماذا تريد؟ قال: أريد أن تأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند، ففعلت الريح ذلك، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانية: رأيتُك تُدِيم النظر إلى واحدٍ من جلسائي، قال ملك الموت: نعم، كنت أتعجب منه؛ لأني كنت أُمِرتُ أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة، وكان عندك فعجبت من ذلك".

قال أحدهم:

مَشَيناها خُطًى كُتِبتْ علينا = ومَنْ كُتِبتْ عليه خُطًى مَشَاها

وأرزاقٌ لنا متفرِّقات = فمَن لم تأْتِهِ منه أَتَاها

ومَنْ كُتِبتْ منيَّته بأرضٍ = فليس يموتُ في أرضٍ سوَاها

لذلك ينبغي على العبد أن يجتهد دائمًا؛ امتثالاً لقوله - تعالى -: {وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢]؛ أي: مستسلمون لطاعته، فلا يأتيك الموت إلا على طاعة؛ لأن الإنسان لا يعلم متى يموت، وبأي أرض سيموت.

- **ثواب مَن مات غريبًا:**

إذا مات الإنسانُ في غير مولدِه، قِيس له في الجنَّة من مولدِه إلى منقطع أمره؛ فقد أخرج ابن ماجه والنسائي - بسند حسن - عن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: "تُوُفِّي رجل بالمدينة، فصلَّى عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: ((يا ليته مات في غير مولده))، فقال رجل من الناس: لِمَ يا رسول الله؟ قال: ((إن الرجل إذا مات بغير مولده، قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنَّة))؛ (صحيح الجامع: ١٦١٦).

أخرج الترمذي عن أبي عزَّة - يسار بن عبيد - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إذا قضى الله لعبدٍ أن يموت بأرض، جعل له إليها حاجة - أو قال: بها حاجة)).

• معنى المحو والإثبات في الصحف وزيادة الأجل ونقصانه:

سُئِل شيخ الإسلام - رحمه الله - فقيل له: قد يُشكل على بعض الناس مواضع في كتاب الله وأحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول بعضهم: إذا كان الله عَلِم كل ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب لا يُزَاد فيه ولا ينقص، فما معنى قوله: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩]؟

وإذا كانت الأرزاق والأعمار والآجال مكتوبةً في اللوح المحفوظ لا تزيد ولا تنقص، فما توجيهكم لقوله - صلى الله عليه وسلم -: ((مَن سرَّه أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسَأ له في أثره، فليَصِلْ رَحِمه))؛ (البخاري ومسلم)؟

وكيف تفسرون قول نوح لقومه: {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [نوح: ٣، ٤]؟

وما قولكم في الحديث الذي فيه: ((إن الله جعل عمر داود - عليه السلام - مائة سنة بعد أن كانت أربعين سنة))؟

والجواب: إن الأرزاق والأعمار نوعان:

نوع جرى به القدر وكُتِب في أم الكتاب، فهذا لا يتغير ولا يتبدَّل.

ونوع أعلم الله به ملائكته، فهذا هو الذي يزيد وينقص؛ ولذلك قال الله - تعالى -: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩]، وأمُّ الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي قدَّر الله فيه الأمور على ما هي عليه، ففي كُتب الملائكة يزيد العمرُ وينقص، وكذلك الرزق بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقًا وأجلاً، فإذا وصل رَحِمَهُ زِيدَ له في الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما"؛ (مجموع الفتاوى: ٨/٥٤٠).

والأجل أجلان:

أجل مطلق: لا يعلمه إلا الله، وأجلٌ مقيَّد يُعْلِمهُ الله للملائكة، وبهذا يتبيَّن معنى قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((مَن سرَّه أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسَأ له في أثره، فليَصِلْ رَحِمه))، فإن الله أمر الملك أن يكتب له أجلاً، وقال: "إن وصل رحمه زدته كذا وكذا"، الملك لا يعلم أيزداد أم لا؟ لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر"؛ (مجموع الفتاوى: ٤/٥١٧).

يقول ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - كما في "فتح الباري" (١١/٤٨٨):

"الذي سبق في علم الله لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، والذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يَبعُد أن يتعلَّق ذلك بما في علم الحَفَظة والموكَّلين بالآدمي؛ فيقع فيه المحو والإثبات؛ كالزيادة في العمر والنقص، وأما ما في علم الله، فلا محوَ فيه ولا إثبات، والعلم عند الله"؛ (القضاء والقدر للدكتور عمر سليمان الأشقر ص ٦٦ - ٦٧).

وقال الإمام النووي - رحمه الله - كما في "شرح مسلم" (١٦/١٧٢ - ١٧٣):

- وبسط الرزق: توسيعه وكثرته، وقيل: البركة فيه.

- أما التأخير في الأجل، ففيه سؤال مشهور: هو أن الآجال والأرزاق مقدَّرة لا تزيد ولا تنقص؛ كما قال - تعالى -: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: ٣٤].

فما معنى الزيادة في العمر؟

يجيب عن هذه العلماءُ بأجوبة؛ الصحيح منها: أن هذه الزيادة بالبركة في العمر، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك.

والثاني: أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ... ونحو ذلك، فيظهر لهم في اللوح المحفوظ أن عمره ستون سنة، إلا أن يصل رحمه، فإن وصلها زِيد له أربعون، وقد علم الله - سبحانه وتعالى - ما سيقع له في ذلك، وهو في معنى قوله - تعالى -: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩]، فهذا بالنسبة إلى علم الله - تعالى - وما سبق به قدره، ولا زيادة، بل هي مستحيلة، وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصوَّر الزيادة، وهو مراد الحديث.

والثالث: أن المراد بقاء ذكره الجميل بعده، فكأنه لم يَمُت؛ حكاه القاضي، وهو ضعيف أو باطل، والله أعلم؛ اهـ.

معنى قوله - تعالى -: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١].

اختُلِف في معنى الآية على قولين:

أولهما: أن ما يعمَّر من معمَّر فيطول عمره، ولا ينقص من عمر آخر غيره عن عمر هذا الذي عمر طويلاً، إلا في كتاب عنده مكتوب قبل أن تحمل به أمُّه، وقبل أن تضعه، ولا يزداد فيما كتب له ولا ينقص؛ وهو قول ابن عباس وغيره.

والضمير في: {وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ} على هذا القول عائدٌ على الجنس (أي البشر)، كما يقال: عندي ثوب ونصفه؛ أي: ونصف ثوب آخر.

والقول الثاني: هو ما قاله سعيد بن جبير وغيره:

قال سعيد بن جبير: في أول الصحيفة مكتوب عمره، ثم يكتب بعد ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان؛ حتى يأتي على أجله"؛ (الدر المنثور للسيوطي: ٥/٤٤٧).

أي إن ما يُعمَّر من مُعَمَّرٍ ولا ينقص من عمره بفناء ما فني من أيام حياته، فذلك هو نقصان عمره، والضمير على هذا القول عائد على المعمَّر الأول.

ومعنى الكلام: ما يطول عمر أحد، ولا يذهب من عمره شيء فينقص، إلا وهو في كتاب عند الله مكتوب؛ ذكرهما ابن جرير في "تفسيره" (١٢/١٢٢ - ١٢٣)، وذهب إلى ترجيح القول الأول؛ لأنه أشبه وأظهر، وذكرهما ابن كثير في "تفسيره" (٣/٥٥٠)، ووافق ابنَ جرير في اختياره للقول الأول، وقد قال بذلك أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (١٤/٤٩٠ - ٤٩١)، وذكر أن التعمير والتقصير يراد بهما شيئان:

أحدهما: أن هذا يطول عمره، وهذا يقصر عمره، فيكون تقصيرُه نقصًا له بالنسبة إلى غيره، كما أن المعمَّر يطول عمره، فيكون التعمير زيادة له بالنسبة إلى الآخر.

والثاني: قد يراد بالنقص النقص من العمر المكتوب، كما يراد بالزيادة الزيادة في العمر المكتوب.

وفي "الصحيحين" عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((مَن سرَّه أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسَأ له في عُمُره، فليَصِلْ رَحِمه))، ثم قال: وقد قال بعض الناس: إن المراد به: البركة في العمر، بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير، قالوا: لأن الرزق والأجل مقدَّران مكتوبان، فيقال لهؤلاء: تلك البركة - وهي الزيادة في العمل والنفع - أيضًا مقدَّرة مكتوبة وتتناول لجميع الأشياء.

فالجواب المحقق: "أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه، زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك"؛ (انظر: تفسير القرطبي: ٣٣٣/١٤، وفتح الباري: ٣٠١/٤ - ٤١٦/١٠).

حضور الشيطان عند الموت:

قال القرطبي في "التذكرة" ص٣٤: سمعتُ شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي، يقول: "حضرتُ أخا شيخِنا أبي جعفر أحمد بن محمد القرطبي بقرطبة، وقد احتضر، فقيل له: لا إله إلا الله، فكان يقول: لا، لا، فلما أفاق، ذكرنا له ذلك، فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي، يقول أحدهما: مُتْ يهوديًّا فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مت نصرانيًّا فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما: لا لا".

ولكن هذا ليس لازمًا لكل أحد كما يقول ابن تيمية، بل من الناس مَن تُعْرَض عليه الأديان قبل موته، ومنهم مَن لا تُعرَض عليه، وقد وقع ذلك لأقوام، وهذا كله من فتنة المحيا والممات التي أُمِرنا أن نستعيذ منها في صلاتنا؛ (مجموع الفتاوى: ٢٥٥/٤).

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - "أن الشيطان أحرص ما يكون على إغواء الإنسان وقت موته؛ لأنه وقت الحاجة، واستدلَّ بالحديث الذي في الصحيح: ((الأعمال بخواتيمها)).

وقال - صلى الله عليه وسلم -: ((إن العبد ليعملُ بعمل أهل الجنَّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب، فيعملُ بعملِ أهل النار فيدخلُها، وإن العبد ليعملُ بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنَّة فيدخلها)).

ولهذا رُوِيَ: "أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم لن تظفروا به أبدًا"؛ (مجموع الفتاوى: ٢٥٦/٤)، (نقلاً من "القيامة الصغرى" ص ٢٩ - ٣٠).

وهناك مَن يزيغ ويزلُّ في آخر لحظات حياته، وهؤلاء الذين كُتِبَ عليهم الشقاء؛ ولهذا أمرنا رب العالمين أن نستعيذَ من إزاغة القلوب وضلالها من بعد الهداية والتوفيق، ذكر - تعالى - دعاء المؤمنين: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: ٨].

تنبيه:

هذا الكلام ليس عليه دليل من الكتاب أو السُّنَّة، ولكن يستأنس به لهذا الأصل، وهو حديث أخرجه الإمام مسلم عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه؛ حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من

أحدِكم اللقمة، فليُمِطْ ما كان بها من أذى، ثم ليأكلها، ولا يدعْها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه؛ فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة)).

ملكُ الموت:

في عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة: الإيمان بملك الموت.

قال ابن بطة: في "الشرح والإبانة" (ص ٢٢٢):

"الإيمان بملك الموت أنه يقبض الأرواح، ثم تُرَدُّ في الأجساد في القبور، وهو يتَّصف بصفات من القدرة والسلطان وعِظَم الخَلق، وغيرهما من الصفات التي جعلتْه قادرًا على قبض أرواح كثيرة في أماكن مختلفة بعيدة الأطراف في لحظة واحدة؛ (انظر: تفسير القرطبي: ٩٤/١٤، والتذكرة للقرطبي: ٨٨/١).

قال الله - تعالى -: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [السجدة: ١١].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - كما في كتاب "العظمة" لأبي الشيخ (٩٢٤/٣): "خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب".

وصحَّ عن مجاهد أنه قال عن ملك الموت: "حُوِيت له الأرض، فجُعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء"؛ (تفسير الطبري:٩٨/٢١).

قال ابن جرير الطبري - رحمه الله - في "تفسيره" (٢١٦/٧):

"إن قال قائل: أوليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت، فكيف قيل: {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} [الأنعام: ٦١]، والرسل جملة وهو واحد؟ أوليس قد قال: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} [السجدة: ١١]؟

ثم أجاب عن ذلك بقوله: " قيل: جائز أن يكون الله - تعالى - أعان ملك الموت بأعوان من عنده، فيقومون بذلك بأمر ملك الموت، فيكون التوفِّي مضافًا إلى ملك الموت؛ إذ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك بأمره، كما يضاف قَتْل مَن قَتَله أعوانُ السلطان، وجَلْد مَن جلدوه بأمر السلطان، وإن لم يكن السلطان باشر ذلك بنفسه، ولا وَلِيه بيده، وقد تأوَّل ذلك كذلك جماعة من أهل التأويل"؛ اهـ.

وذهب آخرون إلى: أن الذي يتولَّى قبض الأرواح هو ملك الموت نفسه، فقال ابن كثير في "تفسيره" (٤٥٧/٣): "والظاهر من هذه الآية، أن ملك الموت شخص معيَّن من الملائكة، وأن له أعوانًا كما هو المتبادر من حديث البراء بن عازب".

فهو يدل على أن ملك الموت: هو الذي يلي قبض الأرواح، ويترل معه ملائكة آخرون، وورد عن قتادة أنه قال: تلي قبضها الرسل، ثم تدفعها إليه، وورد عن ابن عباس وإبراهيم النخعي: أن ملك الموت هو الذي يلي قبض الأنفس، وقد ردَّ العلامة الشنقيطي على إشكال، وفيه:

أنه جاء في بعض آيات القرآن أن الذي يتوفّى الأنفس هو رب العالمين، وجاءت آياتٌ أخرى تبيِّن أنه ملك الموت، وأخرى تقول: إنها الملائكة، فكيف نجمع بين هذه الآيات؟

• ففي قوله – تعالى –: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...} [السجدة: ١١]، أسند الله تعالى في هذه الآية الكريمة التوفِّي إلى ملك واحد.

• وأسنده في آيات أُخَر إلى جماعة من الملائكة؛ كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ} [النساء:٩٧]، وقوله: {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا}، قال ابن عباس: أعوان ملك الموت، وقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ} الآيةَ [الأنفال:٥٠]، وقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ} [الأنعام: ٩٣].

• وأسنده في آية أخرى إلى نفسه – عز وجل – وهي قوله – تعالى –: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...} [الزمر: ٤٢].

والجواب عن هذا ظاهر، وهو: أن إسناده التوفِّي إلى نفسه – سبحانه – لأن ملك الموت لا يقدر أن يقبض روح أحد إلا بإذنه ومشيئته – تعالى –: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا} [آل عمران: ١٤٥]، وأسنده لملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأسنده للملائكة؛ لأن ملك الموت له أعوان من الملائكة تحت رئاسته، يفعلون بأمره وينزعون الروح إلى الحلقوم، فيأخذها ملك الموت، والعلم عند الله تعالى؛ اهـ، بتصرف (رفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب؛ للشنقيطي ص ٢٣٦).

تنبيهات:

١ – قال القرطبي – رحمه الله – في "التذكرة" ص٦٦:

سُئل الإمام مالك بن أنس عن البراغيث، أملك الموت يقبض أرواحها؟ فأطرق مليًّا، ثم قال: أَلَهَا نفسٌ؟ قال: نعم، قال: ملك الموت يقبض أرواحها {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} [الزمر: ٤٢]؛ اهـ.

٢ – قد تكون "توفى بمعنى استكمل أجله، واستوفاه"، وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ} [البقرة: من الآية٢٣٤] قراءتانِ بالبناء للمعلوم وللمجهول، وأنها على قراءة المبني للمعلوم (يَتَوَفَّوْنَ) بمعنى (استيفاء الأجل)؛ قاله ابن النحاس وغيره،

• وكذلك لا يجوز أن نقول: " تَوفَّى" (بفتح الفاء المشدَّدة)؛ فالله هو الذي توفَّى العبَد؛ أي: أماته، أو وفَّاه أجله، والصحيح أن يقال: "تُوُفِّي فلان"؛ (بضم التاء، وكسر الفاء المشدَّدة).

٣ - يقول البعض: إن كلمة" تُوُفِّي" هي مبني للمجهول، وهذا لا يجوز؛ لأن في مثل هذه الحالة نقول: وهل الله مجهول؛ حتى لا يُعْلَم مَن الذي توفَّاه، فالأَوْلى في مثل هذا الموطن ألا تقال هذه الكلمة: "مبني للمجهول" عندما نقول:" تُوُفِّيَ"، ويستحب أن يستبدل كلمة مبني للمجهول بكلمة "لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه".

تخيير الأنبياء عند الموت:

وهذه خاصة بالأنبياء، وليست لأحد من البشر سواهم.

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس فقال: ((إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله، قال: فبكى أبو بكر، فعَجبنا لبكائه، أن يُخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن عبدٍ خُيِّر، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو المُخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا)).

- فعندما يحضر الأنبياءَ الموتُ، فإن الله يُريهم ما لهم عنده من الثواب الجزيل والأجر الكريم، ثم يُخيِّر الأنبياء بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى ذلك المقام، ولا شك أن كل رسول يفضِّل النعيم المقيم على الدنيا وما فيها، وقد حدث هذا لرسولنا - صلى الله عليه وسلم؛ ففي صحيح البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول وهو صحيحٌ: ((إنه لم يُقبَضْ نبي قط حتى يَرَى مقعده من الجنَّة، ثم يُخيَّر))، فلما نزل به ورأسه على فخذي، غُشِي عليه ساعة، ثم أفاق، فأشخص بصرَه إلى السقف، ثم قال: ((اللهم الرفيق الأعلى))، قلت: إذًا لا يختارنا، وعَرَفتُ أنه الحديث الذي كان يُحدِّثنا به، قالت: "فكانت تلك آخرَ كلمة تكلَّم بها النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله: ((اللهم في الرفيق الأعلى)).

وجاء في رواية أخرى عند البخاري: "فسمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - في مرضه الذي مات فيه: وأخذته بُحَّةٌ يقول: {مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩]، قالت: فظننتُ أنه خُيِّر يومئذٍ".

شبهة والرد عليها:

• فقء موسى – عليه السلام – عينَ ملَك الموت:

أخرج البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: "أُرسل[١٠] ملَكُ الموت إلى موسى – عليه السلام – فلما جاءه صكَّه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتَني إلى عبدٍ لا يريد الموت[١١]، قال: ارجع إليه، فقلْ له: يضع يده على متن ثورٍ، فله بما غطَّى يدَه بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، قال: فسأل الله أن يُدنِيه من الأرض المقدَّسة رمية بحجر)).

قال ابن حجر – رحمه الله – في "الفتح" (٦/٥١٠):

"قال ابن خزيمة: "أنكر بعضُ المبتدعة هذا الحديث، وقالوا: "إن كان موسى عَرَفه فقد استخفَّ به، وإن كان لم يعرفه فكيف لم يقتصَّ له من فقء عينه؟".

والجواب: أن الله لم يبعث ملك الموت لموسى وهو يريد قبضَ روحه حينئذٍ، وإنما بعثه إليه اختبارًا، وإنما لطم موسى ملك الموت؛ لأنه رأى آدميًّا دخل داره بغير إذنه، و لم يعلم أنه ملك الموت، وقد أباح الشارع فقء عين الناظر في دار المسلم بغير إذنٍ، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط في صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداءً، ولو عَرَفهم إبراهيم لما قدَّم لهم المأكول، ولو عَرَفهم لوط لما خاف عليهم من قومه.

وعلى تقدير أن يكون عَرَفه، فمِن أين لهذا المبتدع مشروعية القصاص بين الملائكة والبشر؟ ثم من أين له أن ملك الموت طلب القصاص من موسى فلم يقتصَّ له؟ ولخَّص الخطابي كلام ابن خزيمة وزاد فيه: أن موسى دفعه عن نفسه لما ركب فيه من الحدة، وأن الله ردَّ عين ملك الموت؛ ليعلم موسى أنه جاءه من عند الله؛ فلهذا استسلم حينئذٍ".

وقال النووي – رحمه الله –: لا يمتنع أن يأذن الله لموسى في هذه اللطمة امتحانًا للملطوم.

وقال غيره: "إنما لطمه؛ لأنه جاء لقبض روحه من قبل أن يخيره، لما ثبت أنه لم يُقبَض نبي حتى يخير، فلهذا لما خيَّره في المرة الثانية أذعن، قيل: وهذا أَوْلَى الأقوال بالصواب، وفيه نظر؛ لأنه يعود أصل السؤال، فيُقال: لِمَ أقدم ملك الموت على قبض نبي الله وأخلَّ بشرط؟ فيعود الجواب أن ذلك وقع امتحانًا".

وقال ابن حبان – رحمه الله – في "صحيحه":

---

١٠ عند أحمد ومسلم: ((جاء ملك الموت إلى موسى، فقال: أَجِب ربَّك، فلطم موسى عينَ ملك الموت ففقأها))، وعند الطبري: ((كان ملك الموت يأتي الناس عيانًا، فأتى موسى فلطمه ففقأ عينه)).

١١ زاد همام: ((وقد فقأ عينه، فردَّ الله عليه عينه))، وفي رواية: ((فقال: يا رب، عبدك موسى فقأ عيني، ولولا كرامته عليك لشققت عليه))، وفي رواية: ((لو كنتُ ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر)).

"ذِكر خبرٍ شنَّع به على منتحلي سنن المصطفى - صلى الله عليه وسلم - مَن حُرِم التوفيق لإدراك معناه، ثم روى ابن حبان الحديث وعقَّب قائلاً: "إن الله - عز وجل - بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معلِّمًا لخلقه، فأنزله موضع الإبانة عن مراده، فبلَّغ - صلى الله عليه وسلم - رسالته، وبيَّن عن آياته بألفاظ مجملة ومفسرة، عَقَلها عنه أصحابه أو بعضهم، وهذا الخبر من الأخبار التي يُدرك معناه مَن لم يُحرم التوفيق لإصابة الحق؛ وذاك أن الله - جل وعلا - أرسل ملك الموت إلى موسى رسالةَ ابتلاء واختبار، وأمره أن يقول له: أجِبْ ربك، أمر اختيار وابتلاء، لا أمرًا يريد الله - جل وعلا - إمضاءه، كما أمر خليله - صلى الله عليه وسلم - بذبح ابنه أمر اختبار وابتلاء، دون الأمر الذي أراد الله - جل وعلا - إمضاءه؛ اهـــ بتصرف واختصار.

وهذا الحديث وأمثاله فرق ما بين أصحاب الحديث، الذين يُسلِّمون لحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - ويقولون: ما جاءنا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعلى العين والرأس، وبين أفراخ المعتزلة من العقلانيين الذين يحكِّمون عقولهم، ويضعونها فوق النقل، وجهلوا أن الشرع يأتي بمحارات العقول لا بمحالات العقول، وجهلوا أن الشرع حاكم والعقل محكوم عليه.

شبهة أخرى:

يقول بعض المبتدعة: "إن ملك الموت - عليه السلام - قال لله - عز وجل -: ((أرسلتَني إلى عبدٍ لا يريد الموت))، فيُعقِّبون على ذلك ويقولون: وهل هناك رسول - أو حتى عبد صالح - يكره الموت؟!

الجواب: أجل، إن العبد الصالح يكره الموت، لكن لا يكره لقاء الله، إنما يكره الموت؛ لأنه يَحُول بينه وبين العمل الصالح والتزوُّد للآخرة، والدليل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومَن كَرِه لقاء الله، كره الله لقاءه))، قالت عائشة - رضي الله عنها -: "إنا لنكره الموت..." الحديث، فلم يُنكِر عليها النبي - صلى الله عليه وسلم - مقالتَها، ولو كان ذلك فيه مخالفة، لأنكر عليها النبي - صلى الله عليه وسلم".

الحكمة من الموت:

إن الموت مرحلةٌ يمرُّ بها الإنسان، ومنزلة يَرِدُها، وحقيقة لا يتخطَّاها، وكأس يتجرَّعها، ومنهلاً يسقى منه، وللموت حكم كثيرة؛ منها:

١ - في الموت يتجلَّى كمال قدرة الله الخالصة - سبحانه - وعظيم حكمته في تصريف أطوار الخلق؛ فهو الذي أنشأ هذا الإنسان من عدم، ثم أوجده طورًا بعد طور، وخلقًا بعد خلق؛ حتى صار بشرًا

سويًّا يسمع ويبصر ويعقل، ويتكلم ويتحرك، ويسا لم ويخاصم، ويتزاوج ت.سع ويتناسل، ويعيش على أرض الله، وينال من رزق الله، ثم بعد ذلك كله يُمِيته الله – تعالى – فلا يأكل ولا يشرب، ولا يسمع ولا يبصر، ولا يعقل ولا يتحرَّك، فيزول بعد بقاء، ويفنَى بعد وجود، وكل ذلك بتصريف الله وقدرته، وبالغ حكمته في خلق الأمور المختلفة والأحوال المتضادة، قال – تعالى –: {فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة: ٨٦، ٨٧].

تضمَّنت الآيتان تقريرًا وتوبيخًا، واستدلالاً على أصول الإيمان، من وجود الخالق – سبحانه وتعالى – وكمال قدرته، ونفوذ مشيئته وربوبيته، وتصرُّفه في أرواح عباده؛ حيث لا يَقدِرُون على التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده يذهب بها إذا شاء، ويردُّها إليهم إذا شاء، ويخلِّي أبدانهم منها تارة، ويجمع بينها وبينهم تارة"؛ (الثبات على دين الله د/ الأمين الصادق: ٢/٩٧٦ – ٩٧٧).

٢ – أن الله خلق الموت والحياة ابتلاءً لعباده واختبارًا لهم؛ ليعلم مَن يطيعه ممَّن يعصيه، قال – تعالى –: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: ٢].

٣ – بالموت تصلُ النفس إلى اليقين، وتتعرَّف على حقيقتها؛ من حيث إنها مخلوقة للخالق – سبحانه – وأنها مخلوقة لغاية.

٤ – لم يخلقِ اللهُ البشرَ في الدنيا على خِلْقة قابلة للدوام، بل جعلهم خلائف في الأرض، يخلف بعضهم بعضًا، فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف؛ (شفاء العليل لابن القيم: ص ٢٤١).

٥ – في الموت نِعَم عظيمة لا تتأتَّى للناس إلا به، فلولا الموت لما هنأ لهم العيش، ولا طاب في هذه الأرض، ولا وَسِعتْهم الأرزاق، ولضاقت عليهم المساكن والمدن، والأسواق والطرقات.

وهناك حقيقة علمية:

أتدري أخي الحبيب، لو لم يخلق الله الموتَ، ماذا كان سيحدث لو تكاثرت ذبابتان دون موتٍ؟!

والجواب: أن الأرض ستمتلأ ذبابًا؛ حتى تتكوَّن طبقة من الذباب سمكها ٥ سم تغلِّف الكرة الأرضية كاملة خلال سنتين فقط.

٦ – الموت يخلِّص المؤمن من نكد هذه الحياة التي حشيت بالغُصَص، وحُفَّت بالمكاره والآلام الباطنة والظاهرة، إلى نعيم لا ينفد، وقرَّة عين لا تنقطع، وسعادة لا تنتهي في ظلال وارفة، وبساتين مؤنقة، وجنات دائمة، مع خيرة الرفقاء، وأطيب الأصفياء"؛ (الثبات على دين الله، د/ الأمين الصادق: ٢/٩٧٨).

وجاء في "تفسير ابن كثير" (١/٦٦٥) عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه قال: "ما من مؤمنٍ إلا والموت خير له، وما من كافرٍ إلا والموت خير له، ومَن لم يصدِّقني؛ فإن الله يقول: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} [آل عمران: ١٩٨]، ويقول: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [آل عمران: ١٧٨]؛ (انظر كتاب: "الإيمان باليوم الآخر" للدكتور علي محمد الصلابي: ص ٣٢ - ٣٣).

الموت راحة للمؤمن، ونقمة على غيره:

فالموت راحة للطيبين، وكذلك هو راحةٌ من العاصين، يستريحُ منه أهل الأرض ومِن أذاه، حتى الجماد؛ فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي قتادة - رضي الله عنه -: "أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مُرَّ عليه بجنازة، فقال: ((مستريح أو مستراح منه))، قالوا: يا رسول الله، ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: ((العبد المؤمن يستريح من نصَب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)).

- وعند البخاري ومسلم كذلك من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة، فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك، فشر تضعونه عن رقابكم))، والصالح تبكي لموته السماء وأهلها، بخلاف الأشقياء؛ {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ} [الدخان: ٢٩].

جاء في "زاد المسير في علم التفسير" لابن الجوزي (٧/٣٤٥)، و"الدر المنثور" للسيوطي (٦/٣١) عن عليٍّ - رضي الله عنه -: "إن المؤمن إذا مات بكى عليه مُصَلَّاه من الأرض، ومصعد عملِه من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم في الأرض مصلًّى، ولا في السماء مصعد عمل، فقال الله - تعالى -: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ} [الدخان: ٢٩]، وإلى نحو هذا ذهب ابن عباس- رضي الله عنهما".

وجاء في "زاد المسير" أيضًا عن مجاهد - رحمه الله - أنه قال: "ما مات مؤمنٌ إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحًا، فقيل له: أَوَتبكي؟ قال: وما للأرض لا تبكي على عبدٍ كان يعمرها بالركوع والسجود؟! ما للسماء لا تبكي على عبدٍ كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِي كدَوِي النحل؟!".

وقال محمد بن كعب القرطبي - رحمه الله -: "إن الأرض لتبكي من رجل، وتبكي على رجل، وتبكي على مَن كان يعمل على ظهرها بطاعة الله، وتبكي ممَّن كان يعمل على ظهرها بمعصية الله قد أثقلها، ثم قرأ: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ}"؛ (البداية والنهاية: ٩/٢٦٩).

وقفة:

لا يتمنَّى أحدٌ من الصالحين أن يعودَ إلى الدنيا بعد الموت؛ لأنه قد استراح من عنائها، إلا الشهيد الذي قُتِل في سبيل الله، فإنه يتمنَّى أن يعود إلى الدنيا مرة أخرى؛ لكن ليقتل مرة أخرى في سبيل الله؛ فقد أخرج الإمام أحمد، والطبراني، والنسائي في "المجتبى" - بسند صحيح - عن عُبَادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((ما على الأرض نفسٌ تموت، ولها عند الله خير، تحب أن ترجع إليكم، ولها نعيم الدنيا وما فيها إلا القتيل؛ فإنه يحب أن يرجع فيُقتل مرة أخرى)).

وهذا ما حدث مع عبد الله بن حرام والد جابر - رضي الله عنهما - فالنبي - صلى الله عليه وسلم - قال لجابر - رضي الله عنه -: ((أما علمتَ أن الله - عز وجل - أحيا أباك، فقال له: تمنَّ عليَّ، فقال: أُردُّ إلى الدنيا، فأُقتَل مرة أُخرى، فقال الله - عز وجل -: إني قضيتُ الحكم أنهم إليها لا يرجعون))، وفي رواية: ((أن الله - عز وجل - قال له: يا عبدي، تمنَّ عليَّ أُعطِك، قال: يا رب، فأبلغ مَن ورائي، فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩])).

معنى تردُّد الله - سبحانه وتعالى - في قبض نفس المؤمن:

أخرج البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إن الله - تعالى - قال: مَن عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ ممَّا افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويدَه التي يَبطِش بها، ورِجْله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مَساءته)).

وقد سئل شيخ الإسلام - رحمه الله - كما في "مجموع الفتاوى" (٣٦٦/٩) عن معنى تردُّد الله، فقال - رحمه الله -:

"إن طائفة ردَّت هذا الكلام، وقالوا: إن الله لا يوصف بالتردُّد، وإنما يتردَّد مَن لا يعلم عواقب الأمور، والله أعلم بالعواقب.

والتحقيق: أن كلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - حق، وليس أحدٌ أعلمَ بالله من رسوله، ولا أنصح للأمة منه، ولا أفصح ولا أحسن بيانًا منه، فإذا كان كذلك كان المُتَحذلِق والمُنكِر عليه مِن أضلِّ

الناس وأجهلهم وأسوئهم أدبًا، بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يصان كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الظنون الباطلة، والاعتقادات الفاسدة، ولكن المتردِّد منا - وإن كان تردُّده في الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور - لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منا؛ فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ثم هذا باطل، فإن الواحد منا يتردَّد لعدم العلم بالعواقب، وتارة لما في الفعل من المصالح والمفاسد، فيريد الفِعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة، مثل إرادة المريض لدوائه الكريه، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب؛ كقوله - تعالى -: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة: ٢١٦]، ومن هذا الباب يظهر معنى التردُّد المذكور في هذا الحديث، فإنه قال: ((لا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه))، فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوبًا للحق، مُحبًّا له، يتقرَّب إليه أولاً بالفرائض، وهو يحبُّها، ثم اجتهدَ في النوافل التي يحبها ويحب فاعلها، فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق، فأحبَّه الحق لفعل محبوبه من الجانبين، بقصد اتفاق الإرادة، بحيث يحب ما يحبه محبوبه، ويكره ما يكرهه محبوبه، والرب يكره أن يسوءَ عبدَه ومحبوبه، فلَزِم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه، والله - سبحانه وتعالى - قد قضى بالموت، فكل ما قضى به فهو يريده ولا بد، فالرب مريد لموته لما سبق به قضاؤه، وهو مع ذلك كارهٌ لمساءة عبده، وهي المساءة التي تحصل له بالموت، فصار الموت مرادًا للحق من وجه، مكروهًا له من وجه، وهذا حقيقة التردد، وهو أن يكون الشيء الواحد مرادًا من وجه، مكروهًا من وجه، وإن كان لا بدَّ من ترجح أحدِ الجانبين، كما ترجح إرادة الموت، لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته، كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته".

لا يتمنَّى الإنسان الموت أو يدعو به:

فلا يتمنَّى الإنسان الموت، ولا يدعو به، فإن ذلك منهيٌّ عنه، وعمر المؤمن لا يزيده إلا خيرًا، إن كان محسنًا ازداد من الخير، وإن كان مسيئًا، فإنه يقلع عن الذنب ويتوب منه.

أخرج البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((لا يتمنَّى أحدُكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يَستَعتِب))، وفي لفظ مسلم: ((لا يتمنَّى أحدكم الموت، ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عملُه، وإنه لا يزيد المؤمنَ عُمُرُه إلا خيرًا))، ومعنى: "يَستَعتِب"؛ أي: يسترضي الله بالإقلاع والاستغفار؛ (فتح الباري)، وقيل: "يَستَعتِب"؛ أي: يرجع عن موجب العتب عليه؛ أي: يرجع عن الإساءة.

وأخرج الإمام أحمد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((يا عم، لا تتمنَّ الموت؛ فإنك إن كنت محسنًا تزدادُ إحسانًا إلى إحسانك خيرٌ لك، وإن كنت مسيئًا فإن تؤخر فتَستَعتِب من إساءتك خير لك، فلا تتمنَّ الموت))، وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((لن يُدخِل أحدًا عملُه الجنَّة))، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((لا، ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله بفضل ورحمة، فسدِّدوا وقاربوا، ولا يتمنَّينَّ أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يَستَعتِب)).

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في "الفتح" (١٠/١٣٦) في قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يَستَعتِب))، فيه إشارة إلى أن المعنى في النهي عن تمنِّي الموت والدعاء به، هو انقطاع العمل بالموت، فإن الحياة يتسبَّب منها العمل، والعمل يحصل زيادة الثواب، ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال.

ومِمَّا يدل على أن زيادة العمر للمؤمن زيادة في الخير له:

ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن طلحة بن عبيدالله - رضي الله عنه -: "أن رجلين من بَلِيٍّ قَدِما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان إسلامُهما جميعًا، فكان أحدهما أشد اجتهادًا من الآخر، فغزا المجتهد منهما فاستُشهد، ثم مكث الآخر بعده سنة، ثم تُوُفِّي، قال طلحة: فرأيت في المنام: بينا أنا عند باب الجنَّة، إذا أنا بهما، فخرج خارج من الجنَّة، فأَذِن للذي تُوُفِّي الآخِرَ منهما، ثم خرج، فأَذِن للذي استشهد، ثم رجع إليَّ، فقال: ارجع، فإنك لم يأنِ لك بعد، فأصبح طلحة يُحدِّث به الناس، فعجبوا لذلك، فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدَّثوه الحديث، فقال: ((من أي ذلك تعجبون؟))، فقالوا: يا رسول الله، هذا كان أشد الرجلين اجتهادًا، ثم استشهد، ودخل هذا الآخِر الجنَّة قبله، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((أليس قد مكث هذا بعده سنة؟))، قالوا: بلى، قال: ((وأدرك رمضان، فصام وصلَّى كذا وكذا من سجدة في السنة؟))، قالوا: بلى، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((فما بينهما أبعد مِمَّا بين السماء والأرض))؛ (صححه الألباني في صحيح ابن ماجه: ٣١٧١).

وسمع عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - رجلاً يتمنَّى الموت، فقال: "لا تتمنَّ الموت، فإنك ميت، لكن سلوا الله العافية"؛ (الزهد لهناد: ص٢٥٥).

وأخرج البخاري ومسلم عن قيس قال: "أتيتُ خبَّابًا وقد اكتوى سبعًا، قال: لولا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به".

وأخرج النسائي عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((لا تدعوا بالموت، ولا تتمنَّوه، فمَن كان داعيًا لا بد، فليَقُل: اللهم أَحْيِني ماكانت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي))؛ (صحيح الجامع: ٧٢٦٥).

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((لا يتمنينَّ أحدُكم الموت لضرٍّ نزل به - وفي رواية: من ضرٍّ أصابه - فإذا كان لا بد فاعلاً - وفي رواية: "فإن كان متمنيًا - فليَقُل: اللهم أحيني ماكانت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي)).

((فإن كان لا بد فاعلاً)): فإن كان لا بد متمنيًا الموت، ((فليَقُل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي))، وهذا يدل على أن النهي عن تمنِّي الموت مقيد بما إذا لم يكن على هذه الصيغة؛ لأن في التمني المطلق نوع اعتراض، ومراغمة للقدر المحتوم، وفي هذه الصورة المأمور به نوع تفويض وتسليم للقضاء.

قال النووي - رحمه الله -: "وفي الحديث أن مَن خاف و لم يَصبِر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه، فليقل: ((اللهم أحيني إن كانت الحياة خيرًا لي...)) إلخ، والأفضل الصبر والسكون للقضاء.

قال السعدي - رحمه الله - في شرحه للحديث السابق:

هذا نهي عن تمنِّي الموت للضر الذي يترل بالعبد؛ من مرض، أو فقر، أو خوف، أو وقوع في شدة ومهلكة... أو نحوها من الأشياء، فإن في تمنِّي الموت لذلك مفاسد:

- منها: أنه يؤذن بالتسخط والتضجر من الحالة التي أصيب بها، وهو مأمور بالصبر والقيام بوظيفته، ومعلوم أن تمنِّي الموت ينافي ذلك.

- ومنها: أنه يُضعِف النفس، ويُحدِث الخَوَر والكسل، ويُوقِع في اليأس، والمطلوب من العبد مقاومة هذه الأمور، والسعي في إضعافها وتخفيفها بحسب اقتداره، وأن يكون معه من قوة القلب وقوة الطمع في زوال ما نزل به، وذلك مُوجِب لأمرين: اللطف الإلهي لَمن أتى بالأسباب المأمور بها، والسعي النافع الذي يُوجِبه قوة القلب ورجاؤه.

- ومنها: أن تمنِّي الموت جهل وحمق، فإنه لا يدري ما يكون بعد الموت، فربما كان كالمستجير من الضرِّ إلى ما هو أفظع منه: من عذاب البرزخ وأهواله.

- ومنها: أن الموت يقطع على العبد الأعمال الصالحة التي هو بصدد فعلها، والقيام بها، فكيف يتمنَّى انقطاع عملٍ الذرةُ منه خيرٌ من الدنيا وما عليها؟!

• وأخص من هذا العموم: قيامه بالصبر على الضرِّ الذي أصابه، فإن الله يُوفِّي الصابرين أجرَهم بغير حساب.



ولهذا قال في آخر الحديث: ((فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل: اللهم أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي))، فيجعل العبدُ الأمرَ مُفوَّضًا إلى ربه، الذي يعلم ما فيه الخير والصلاح له، والذي يعلم من مصالح عبده ما لم يعلم العبد، ويريد له من الخير ما لا يريده العبد لنفسه، ويلطف به في بلائه، كما يلطف به في نعمائه؛ اهـ. (بهجة القلوب الأبرار: ص ٢٠٨).

والحاصل: أن تمنِّي الموت لضرٍّ دنيوي أمرٌ مكروه، ووجه كراهيته في هذا الحال أن المتمنِّي للموت لضرٍّ نزل به، إنما يتمنَّاه تعجيلاً للاستراحة من ضرِّه، وهو لا يدري إلى ما يصير بعد الموت، فلعله يصير إلى ضرٍّ أعظم من ضرِّه، فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وفي الحديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ((إنما يستريح مَن غُفِرَ له))[١٢]؛ فلهذا لا ينبغي له أن يدعو بالموت، إلا أن يشترط أن يكون خيرًا له عند الله – عز وجل – كما جاء في الحديث.

تنبيه مهم: يجوز تمنِّي الموت في حالات، منها:

أولاً: تمنِّي الموت عند حضور أسباب الشهادة، ومن أمثلة ذلك:

ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: "إنه في غزوة بدرٍ لما دنا المشركون، قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: ((قوموا إلى جَنَّة عرضها السموات والأرض))، فقال عمير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟! قال: ((نعم))، قال عمير: بخٍ.. بخٍ[١٣]، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((ما يحملك على قولك: بخٍ.. بخٍ؟))، قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: ((فإنك من أهلها))، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قُتِل".

وكذلك لما سأله عوف بن الحارث – ابن عفراء – فقال: "يا رسول الله، ما يُضحك الرَّبَّ من عبده؟ قال: ((غمسه يده في العدو حاسرًا))، فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قُتِل"؛ (ابن الأثير في أُسد الغابة، وابن هشام في السيرة)، والنماذج كثيرة في الصحابة وفي غيرهم من السلف الصالح، حيث كانوا يتمنون الموت طلبًا للشهادة.

---

١٢ والحديث أخرجه الإمام أحمد، وأبو نعيم في "الحلية" (٨/٢٩٠)، والبزار من حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت: "قيل: يا رسول الله، ماتت فلانة واستراحت، فغضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال: ((إنما يستريح من غُفِرَ له))؛ (السلسلة الصحيحة: ١٧١٠).

١٣ ((بخٍ.. بخٍ)): كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير.

ومن الأمثلة على ذلك أيضًا: سؤال معاذ لنفسه وأهل بيته الطاعون لما وقع بالشام؛ طلبًا للشهادة.

ثانيًا: تمنِّي الموت لِمَن وثق بعمله شوقًا إلى لقاء الله – عز وجل –:

قال الحافظ ابن حجر– رحمه الله – في "فتح الباري"(١٠/١٣٣ – ١٣٤): "عند قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: ((لا يتمنين...)): إنه إذا حلَّ به – أي الموت – لا يمنع من تمنِّيه رضًا بلقاء الله، ولا من طلبه من الله لذلك وهو كذلك، ولهذه النكتة عقَّب البخاري حديث أبي هريرة بحديث عائشة: ((اللهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى))؛ إشارة إلى أن النهي مختص بالحالة التي قبل نزول الموت، فلله دره ما كان أكثر استحضاره وإيثاره للأخفى على الأجلى شحذاً للأذهان.

وقد خَفِي صنيعه هذا على مَن جعل حديث عائشة في الباب "باب تمني المريض الموت" معارضًا لأحاديث الباب، أو ناسخًا لها، وقوَّى ذلك بقول يوسف – عليه السلام –: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١]، قال ابن التين: "قيل: إن النهي منسوخ بقول يوسف... فذكره، وبقول سليمان: {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [النمل: ١٩]، وبحديث عائشة في الباب، وبدعاء عمر بالموت وغيره.. قال: وليس الأمر كذلك؛ لأن هؤلاء إنما سألوا لما قارب الموت، قلت (أي الحافظ): وقد اختُلف في مراد يوسف – عليه السلام – فقال قتادة: لم يتمنَّ الموتَ أحدٌ إلا يوسف حين تكاملت عليه النعم، وجُمع له الشمل اشتاق إلى لقاء الله؛ (أخرجه الطبراني بسند صحيح عنه)، وقال غيره: بل مراده: توفني مسلمًا عند حضور أجلي؛ كذا أخرجه ابن أبي حاتم عن الضحاك بن مزاحم، وكذلك مراد سليمان – عليه السلام.

وعلى تقدير الحمل على قول قتادة، فهو ليس من شرعنا، وإنما يُؤخَذ بشرع مَن قبلنا ما لم يَرِدْ في شرعنا النهي عنه بالاتفاق، وقد استشكل الإذن في ذلك عند نزول الموت؛ لأن نزول الموت لا يتحقق، فكم من انتهى إلى غاية جرَت العادة بموت مَن يصل إليها ثم عاش.

والجواب: أنه يحتمل أن يكون المراد أن العبد يكون حاله في ذلك الوقت حال مَن يتمنى نزوله به ويرضاه أن لو وقع به، والمعنى: أن يطمئن قلبه إلى ما يرد عليه من ربه، ويرضى به ولا يقلق، ولو لم يتَّفِق أنه يموت في ذلك المرض"؛ اهـــ.

وكان كثير من السلف يتمنَّون الموت شوقًا للقاء الله:

فالموت هو السبيل الموصل للقاء الحبيب بحبيبه:

١ - ففي "حلية الأولياء" (٩/١٠) عن حبان بن الأسود قال: "الموت خير، يُوصِل الحبيب إلى حبيبه".

٢ - قال حذيفة - رضي الله عنه - لما حضرته الوفاة: "حبيبٌ جاء على فاقة، لا أفلح مَن ندم، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليَّ من الغنى، والسقم أحب إليَّ من الصحة، والموت أحب إليَّ من العيش، فسهِّل عليَّ الموت حتى ألقاك"؛ (الثبات عند الممات لابن الجوزي ص ١٢٢).

٣ - وقال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: "أُحِب الفقر تواضعًا لربي، وأحب الموت اشتياقًا لربي، وأحب المرض تكفيرًا لخطيئتي"؛ (شرح الصدور ص ١٥).

٤ - وقال عنبسة الخولاني: "كان مَن قبلكم لقاء الله أحب إليه من الشهد".

٥ - وقال بعضهم: "طال شوقي إليك؛ فعجِّل قدومي عليك".

٦ - وقال بعضهم: "لا تطيب نفسي بالموت إلا إذا ذكرت لقاء الله - عز وجل - فإنني حينئذٍ أشتاق إلى الموت كشوق الظمآن الشديد ظمؤه في اليوم الحار الشديد حرُّه إلى الماء البارد الشديد برده".

وفي هذا يقول بعضهم:

أشتاقُ إليكَ يا قريبًا نائي = شوقَ ظامٍ إلى زلالِ الماء

وقد دلَّ على جواز ذلك قولُ الله - عز وجل -: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ٩٤]، وقوله - تعالى -: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الجمعة: ٦]؛ فدلَّ ذلك على أن أولياء الله لا يَكرَهُون الموت بل يتمنونه، ثم أخبر أنهم: {وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} [الجمعة: ٧]؛ فدلَّ على أنه إنما يكره الموت مَن له ذنوب يخاف القدوم عليها.

٧ - كما قال بعض السلف: "ما يكره الموت إلا مريب".

وفي حديث عمَّار بن ياسر - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((أسألك لذَّة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضرَّاء مضرَّة، ولا فتنة مضلة))؛ (أخرجه النسائي، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١٣٠١).

فالشوق إلى لقاء الله - تعالى - إنما يكون بمحبة الموت، وذلك لا يقع غالبًا إلا عند خوف ضرَّاء مضرة في الدنيا، أو فتنة مضلة في الدين، فأما إذا خلا عن ذلك كان شوقًا إلى لقاء الله - عز وجل - وهو المسؤول في هذا الحديث، فالمطيع لله مستأنس بربه، فهو يحب لقاء الله، والله يحب لقاءه، والعاصي مستوحش بينه وبين مولاه وحشة الذنوب، فهو يكره لقاء ربه ولا بد له منه.

٨ - وقال ذو النون: "كل مطيع مستأنس، وكل عاصٍ مستوحش"، وفي هذا يقول بعضهم:

أمستوحشٌ أنتَ مما جنَيت = فأحسنْ إذا شئتَ واستأنسِ

٩ - قال أبو بكر الصِّديق لعمر - رضي الله عنهما - في وصيته له عند الموت: "إن حَفِظت وصيتي لم يكن غائبٌ أحبَّ إليك من الموت ولا بد منه، وإن ضيَّعتَها لم يكن غائبٌ أكرهَ إليك من الموت ولن تُعجِزه".

١٠- قال أبو حازم: كل عمل تكره الموت من أجله فاتركه، ثم لا يضرك متى مت.

١١ - ولما احتضر زكريا بن عدي - رحمه الله - قال: "اللهم إني إليك مشتاق"، قال بِشْرٌ معلقًا على كلام زكريا: "ليس أحد يحب الدنيا إلا لم يحب الموت، ومَن زهد فيها أحب لقاء مولاه".

١٢ - سئل أبو حازم: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فَكَقُدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصي فكقدوم الآبِق على سيده الغضبان؛ (لطائف المعارف ص٥٨٢ - ٥٨٥ بتصرف).

١٣ - رُئِيَ أحد الصالحين في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: خيرًا، لم يُر مثل الكريم إذا حلَّ به مطيع، فالدنيا كلها شهر الصيام للمتقين، وعيد فطرهم يوم لقاء ربهم، وصدق مَن قال:

وقد صُمْتُ عن لذَّاتِ دهري كلِّها = ويومَ لقاكم ذاك فطرُ صيامي

ثالثًا: تمنِّي الموت عند خوف الفتنة أو الضرر في الدِّين:

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به - وفي رواية: من ضرٍّ أصابه - فإذا كان لا بد فاعلاً - وفي رواية: فإن كان متمنيًا - فليقل: اللهم أحْيِني ماكانت الحياةُ خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيرًا لي)).

قال النووي في "شرح مسلم" عند قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((لا يتمنين أحدُكم الموت من ضرٍّ أصابه)): "فيه التصريح بكراهة تمنِّي الموت لضرٍّ نزل به؛ من مرض، أو فاقة، أو محنة من عدو... أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، فأما إذا خاف ضررًا في دينه أو فتنة فيه، فلا كراهة فيه؛ لمفهوم هذا الحديث وغيره، وقد فعل هذا الثاني خلائقُ من السلف عند خوف الفتنة في أديانهم"؛ اهـ.

وفي الحديث السابق للنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي))؛ ففي هذا تمنِّي الموت وهو خيرٌ للمسلم من أن يفتن في دينه... أو نحو هذا.

وهذا ما كان يدعو به النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: "احتبس عنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات غداةٍ عن صلاة

الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سريعًا فثوَّب بالصلاة، وصلَّى وتجوَّز في صلاته، فلما سلَّم، قال: ((كما أنتم على مصافِّكم))، ثم أقبل إلينا، فقال: ((إني سأحدِّثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمتُ من الليل وصلَّيت ما قُدِّر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظتُ، فإذا أنا بربي - عز وجل - في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلتُ: لا أدري يا رب، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب، فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلَّى لي كل شيء وعَرَفتُ، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفَّارات، قال: وما الكفارات؟ قلت: نقلُ الأقدام إلى الجمعات، والجلوس في المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء عند الكريهات، قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نِيام، قال: سَلْ، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحبَّ مَن يحبك وحبَّ عملٍ يُقرِّبني إلى حبِّك))، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إنها حق فادرسوها ثم تعلموها)).

فالشاهد من الحديث قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((وإذا أردت فتنةَ قومٍ فتوفَّني غير مفتون))، وهذا يدل على جواز تمنِّي الموت عند الخوف من الفتنة، وهذا ما يؤكِّد عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد أخرج الإمام أحمد عن محمود بن لبيد - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((اثنان يكرههما ابن آدم: الموت، والموت خيرٌ للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل الحساب))؛ (انظر "السلسلة الصحيحة": ٨١٣).

وقد تمنَّى الموت ودعا به خشيةَ الفتنةِ خلقٌ من الصحابة وأئمة الإسلام، وغيرهم:

١ - فها هي مريم - عليها السلام - تقول: {قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا} [مريم: ٢٣]؛ قال القرطبي في تفسير هذه الآية (٩٢/١١): "تمنَّت مريم - عليها السلام - الموت من جهة الدين، لوجهين: أحدهما: أنها خافت أن يُظَن بها الشرُّ في دينها، وتُعيَّر فيفتنها ذلك، الثاني: لئلاَّ يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنا، وذلك مُهلِك، وعلى هذا الحد يكون تمنِّي الموت جائزًا".

وقال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية أيضًا (١٠٣/٣):

"فيه دليل جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عَرَفت أنها ستُبْتَلى وتُمْتَحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يُصدِّقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح

عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: {يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا}؛ أي: قبل هذا الحال، {وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا}؛ أي: لم أخلق و لم أك شيئًا؛ (قاله ابن عباس)؛ اهـــ.

٢ - وأخرج الإمام مالك عن سعيد بن المسيب - رضي الله عنه - أنه سمع أباه يقول: "لما صدر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من مِنى أناخ بالأبطح، ثم كوم كومة بطحاء، ثم طرح عليها رداءه واستلقى، ثم مدَّ يده إلى السماء، فقال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيِّع ولا مفرِّط، ثم قَدِم المدينة فخطب الناس، فقال: أيها الناس، قد سننت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة إلا أن تضلوا بالناس يمينًا وشمالاً، وضرب بإحدى يديه على الأخرى، ثم قال: إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم، أن يقول قائل: لا نجد حدَّين في كتاب الله؛ فقد رجم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورجمنا، والذي نفسي بيده، لولا أن يقول الناس: زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله لكتبتُها: (الشيخ والشيخة فارجموها ألبتَّة)، فإنا قد قرأناها"، قال مالك: قال يحيى بن سعيد: قال سعيد بن المسيب: فما انسلخ ذو الحجة حتى قُتِلَ عمر - رضي الله عنه.

- قال يحيى: سمعتُ مالكًا يقول: "الشيخ والشيخة"؛ يعني: الثيِّب والثيبة، والشاهد قول عمر - رضي الله عنه - عندما خاف أن يتغير، فقال: "فاقبضني إليك غير مفتون ولا مفرط".

وقد أبدع ابن الأحنف في قوله:

يَبْكِي رجالٌ على الحياةِ وقد = أفنَى دُمُوعي شوقي إلى الأجلِ

أَمُوتُ من قبلِ أن يغيِّرني = الدهرُ فإني منه على وَجَلِ

(العزلة: ص ٩١).

٣ - قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في يوم الجمل: "ليتني متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة!"؛ (كتاب المتمنين لابن أبي الدنيا ص ٦٢).

٤ - وعن عُبيدة بن عبدالله بن مسعود قال: "مرَّ سليمان بن صُرد بأمي، فطلب ماءً ليتوضأ به، فأَتَتْه الجارية بماء، فمرُّوا برجل مجلود يقول: أنا والله مظلوم، فقال: يا هذه، لمثل هذا كان زوجك (يعني عبدالله بن مسعود) يتمنَّى الموت"؛ (كتاب المتمنين: ص ٨٣).

٥ - وقال عمرو بن مرة الهمداني: "تمنَّى عبدالله لأهله ولنفسه الموت، فقيل له: تمنيت لأهلك، فلِمَ تمنيت لنفسك؟ فقال: لو أني أعلم أنكم تبقون على حالكم هذه لتمنيت أن أعيش، فذكر عشرين سنة"؛ (كتاب المتمنين: ص ٨٣).

٦ - وتمنَّى عطاء السلمي الموت، وقال: "إنما يريد الحياة مَن يزداد خيرًا، فأما مَن يزداد شرًّا فما يصنع بالحياة!"؛ (المصدر السابق: ص ٦٩).

٧ - وكان أبو رجاء العطاردي يقول: "لأنا إلى مَن في بطنها أشوق مني إلى مَن في ظهرها"؛ (المصدر السابق: ص ٨٤).

٨ - وقال طاوس: "لا يحرز دين المؤمن إلا حفرته"؛ (ابن أبي شيبة: ٥٣٧/١٣، وأبو نعيم في الحلية: ٦/٤).

٩ - وقال الثوري: "لا يحرز دين المرء إلا قبره" (الحلية: ٢٢/٧).

١٠ - وعن ربيعة بن زُهير قال: قيل لسفيان: "كم تتمنَّى الموت، وقد نهى عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم؟! فقال: لو سألني ربي، لقلتُ: يا رب لثِقَتِي بك، وخوفي من الناس؛ لأني لو خالفت واحدًا في رمَّانة، فقلت: حُلوة، وقال: مُرة، لخِفتُ أن يُشاط بدمي"؛ (العزلة للخطابي: ص ٩١).

١١ - وجاء في كتاب "رياض النفوس" (٢٣٦/٢) عن يونس أنه قال:"ما رأيت أحدًا سُرَّ بالموتِ من أبي الفضل يوسف بن مسرور مولى نجم الصيرفي، كان يقول: والله، لو أعلم أن أحدًا تُجاب دعوته، لسألتُه أن يسأل الله - تعالى - لي الموت، فقلت له: أصلحك الله، أَوَتُحِب أن تموت؟ فقال: وكيف لا أحب الخروج من دار الفتن، وإبليس، وكذا... وكذا، إلى دارٍ أرجو فيها الاجتماع مع محمد - صلى الله عليه وسلم؟

وتحدَّث أبو علي الحسن بن فتحون، فقال: "كنتُ جالسًا يومًا عند أبي محمد البرقي؛ حتى دخل عليه أبو الفضل، فقال له: إن شئت تدعو ونُؤمِّن، أو ندعو وتُؤَمِّن، فقال أبو الفضل: أي ذلك شئت، وأخذ أبو الفضل في الدعاء، وأخذ الآخر يُؤمِّن على دعائه، يسألان الله - تعالى - الموت، فما أتى بعد ذلك شهر حتى مات أبو الفضل، ثم شهر آخر بعده حتى مات محمد البرقي - رحمهما الله تعالى.

يقول أبو هريرة - رضي الله عنه -: "سيأتي على الناس زمان، يكون الموت أحبَّ إلى العلماء من الذهب الأحمر، حتى يأتي الرجل قبر أخيه، فيقول: يا ليتني مكانك"، وصدق أبو هريرة - رضي الله عنه - فها هو سفيان الثوري يقول: "كان من دعائي ألا أموت فجأة، فأما اليوم فوددتُ أنه قد كان"؛ (كتاب المتمنين: ص ٨٤)، وكان - رحمه الله -: إذا اغتمَّ رمى بنفسه عند وهيب بن الورد، فقال له: يا أبا أمية، أتدري أحدًا يتمنَّى الموت؟ قال وهيب: أمَّا أنا فلا! قال له سفيان: أما أنا، فوالله لوددت أني مت، ووالله لوددت أني مت، قالها ثلاثًا"؛ (المصدر السابق: ص ٧٣).

وعن أبي مهلهل سعيد بن صدقة قال: "أخذ بيدي سفيانُ الثوري يومًا، فأخرجني إلى الجبَّان، فاعتزلنا ناحية من طريق الناس، فبكى ثم قال: يا أبا مهلهل، وددتُ أني لم أكن كتبت من هذا العلم حرفًا واحدًا، إلا ما لا بد للرجل منه، قال: ثم بكى، ثم قال: يا أبا مهلهل، قد كنت قبل اليوم أكره الموت،

فقلبي اليوم يتمنَّى الموت، وإن لم ينطق به لساني، قلت: ولم ذاك؟ قال: لتغيُّر الناس وفسادهم"؛ (المصدر السابق: ص ٦٤).

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((والذي نفسي بيده، لا تذهب الدنيا حتى يمرَّ الرجل على القبر فيتمرغ عليه، ويقول: يا ليتي كنتُ مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدِّين إلا البلاء)).

قال أبو نعيم في "الحلية" (١٤/٢): "كان العرباض بن سارية - رضي الله عنه - يقول وقد كبرت سنه: "اللهم كبرت سني، ووهن عظمي، فاقبضني إليك".

وقال أيضًا في "الحلية" (٣٩/٢): "قال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الحسن أنه لما نزل القوم بالحسين - رضي الله عنه - وأيقن أنهم قاتلوه، قام في أصحابه خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "قد نزل من الأمر ما ترون، وإن الدنيا قد تغيَّرت وتنكرت، وأدبر معروفها، وانشمرت حتى لم يبقَ منها إلا كصبابة الإناء، إلا خسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الحق لا يُعمَل به، والباطل لا يُتنَاهَى عنه، ليرغَبِ المؤمنُ في لقاء الله، وإني لا أرى الموت إلا سعادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا جرمًا؛ اهـ.

س: لكن ما حكم تمنِّي الموت في غير الوجوه السابقة؟

"فقد اختلف العلماء في كراهيته واستحبابه، وقد رخَّص فيه جماعة من السلف، وكَرِهه آخرون، وحكى بعضُ أصحابنا عن أحمدَ في ذلك روايتين، ولا يصح، فإن أحمد إنما نصَّ على كراهة تمني الموت لضرر الدنيا، وعلى جواز تمنِّيه خشية الفتنة في الدين.

واستدل مَن كَرِهه بعموم النهي عنه؛ كما في حديث جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((لا تتمنَّوا الموت؛ فإن هول المطلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة))، وقد علل النهي عن تمنِّي الموت في حديث جابر بعلتين:

إحداهما: أن هول المطلع شديد، وهول المطلع: هو ما يكشف للميت عند حضور الموت من الأهوال التي لا عهد له بشيء منها في الدنيا؛ من رؤية لملائكة، ورؤية أعماله من خير أو شر، وما يبشَّر به عند ذلك من الجنَّة أو النار، هذا مع ما يلقاه من شدة الموت وكربه وغُصَصِه.

قال الحسن - رحمه الله -: "لو علم ابنُ آدم أن له في الموت راحة وفرحًا، لشق عليه أن يأتيَه الموتُ؛ لما يعلم من فظاعته وشدته وهوله، فكيف وهو لا يعلم ما له في الموت نعيم دائم، أو عذاب مقيم؟!".

فالمتمني للموت كأنه يستعجل حلول البلاء، وإنما أمرنا بسؤال العافية.

والعلة الثانية: أن المؤمن لا يزيدُ عمره إلا خيرًا، فمن سعادته أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة إليه.

• واختلف السالكون أيما أفضل، مَن تمنَّى الموت شوقًا إلى لقاء الله، أو تمنَّى الحياة رغبة في طاعة الله؟ أو مَن فوَّض الأمر إلى الله ورَضِي باختياره و لم يختر شيئًا؟

فذهب قوم إلى تفضيل الموت على الحياة، واستدلَّ طائفةٌ من الصحابة بقول الله - عز وجل -: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} [آل عمران: ١٩٨]، ولكن الأحاديث الصحيحة تدلُّ على أن عمر المؤمن كلما طال، ازداد بذلك ما له عند الله من الخير، فلا ينبغي له أن يتمنَّى انقطاع ذلك، اللهم إلا أن يخشى الفتنة على دينه، فإنه إذا خشي الفتنة على دينه، فقد خشي أن يفوته ما عند الله من خير، والموت خير له على هذه الحال.

قال ميمون بن مهران: "لا خير في الحياة إلا لتائب، أو رجل يعمل في الدرجات".

وأخرج ابن ماجه - بسند صحيح - عن طلحة بن عبيدالله: "أن رجلين من بَلِيٍّ قَدِما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان إسلامُهما جميعًا، فكان أحدُهما أشدَّ اجتهادًا من الآخر، فغزا المجتهد منهما فاستشهد، ثم مكث الآخر بعده سنة، ثم تُوُفِّي، قال طلحة: فرأيتُ في المنام: بينا أنا عند باب الجنَّة، إذا أنا بهما، فخرج خارج من الجنَّة، فأَذِن للذي تُوُفِّي الآخر منهما، ثم خرج، فأَذِن للذي استشهد، ثم رجع إليَّ فقال: ارجعْ، فإنك لم يأنِ لك بعدُ، فأصبح طلحة يُحدِّث الناس، فعجبوا لذلك، فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدَّثوه الحديث، فقال: ((من أي ذلك تعجبون؟))، فقالوا: يا رسول الله، هذا كان أشدَّ الرجلين اجتهادًا، ثم استشهد، ودخل هذا الآخر الجنَّة قبله، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((أليس قد مكث هذا بعده سنة؟))، قالوا: بلى، قال: ((وأدرك رمضان؛ فصام وصلَّى كذا وكذا من سجدة في السنة؟))، قالوا: بلى، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((فما بينهما أبعدُ ممَّا بين السماء والأرض)).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن عبدالله بن بسر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((خيرُ الناس مَن طال عمره، وحَسُن عمله))؛ (صحيح الجامع: ٣٢٩٦).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن أبي بكرة - رضي الله عنه - مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((خير الناس مَن طال عمره وحسن عمله، وشر الناس مَن طال عمره وساء عمله))؛ (صحيح الجامع: ٣٢٩٧).

وأخرج الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((ألا أنبئكم بخياركم؟))، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((خيارُكم أطولكم أعمارًا وأحسنكم أعمالاً)).

- طلب أحدهم الموت، فقيل له: لا تفعل، لَسَاعةٌ تعيش فيها تستغفرُ الله خير لك من فوت الدهر.

- وقيل لشيخ كبير منهم: تحبُّ الموت؟ قال: لا، قيل: ولم؟ قال: ذهب الشباب وشره، وجاء الكبر وخيره، إذا قمتُ، قلت: بسم الله، وإذا قعدت قلت: الحمد لله، فأنا أحب أن يبقى لي هذا.

- الموتى في قبورهم يتمنَّون زيادة في أعمالهم بتسبيحة أو بركعة.

ومنهم مَن يسأل الرجعةَ إلى الدنيا للتوبة، وإصلاح الزاد، فلا يقدرون على ذلك، قد حيل بينهم وبين العمل.

- ورُئِي بعضُهم في المنام، فقال: نَدِمنا على أمرٍ عظيم، نعلم ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، والله لَتسبيحةٌ أو تسبيحتان، أو ركعة أو ركعتان في صحيفة أحدِنا أحب إليه من الدنيا وما فيها.

- قال بعض السلف: "كل يوم يعيش فيه المؤمن غنيمة".

- وقال بعضهم: ما فات من عمر المؤمن لا قيمة له؛ يعني: أنه يمكنه أن يمحو فيه ما سلف منه من الذنوب بالتوبة، وأن يجتهد فيه في بلوغ الدرجات العالية بالعمل الصالح، فأما مَن فرَّط في بقية عمره فإنه خاسر، فإن ازداد فيه من الذنوب فذلك هو الخسران المبين، الأعمال بالخواتيم، مَن أصلح فيما بقِي غُفِرَ له ما مضى، ومَن أساء فيما بقي أُخِذ بما بقي وما مضى"؛ (لطائف المعارف لابن رجب).

- وعلى هذا ينبغي على الإنسان أن يغتنم عمره باكتساب الطاعات.

تنبيه: يستحب أن يتمنَّى الإنسان الموت في أرض مباركة:

قال البخاري - رحمه الله - باب "مَن أحبَّ الدفن في الأرض المقدسة ونحوها".

وقد دعا موسى - عليه السلام - ربَّه عند الموت أن يُدْنِيه من الأرض المقدسة، وكان عمر - رضي الله عنه - يتمنَّى أن يموت بالمدينة؛ فقد أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه كان يدعو فيقول: "اللهم ارزقني شهادةً في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك".

• أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى السبعين سنة، ولا يجاوز ذلك إلا القليل:

أخرج الترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((أعمار أُمَّتِي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلُّهم مَن يجاوز ذلك))؛ (صحيح الجامع: ١٠٧٣).

وروى الحكيم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((معترك المنايا[1] ما بين الستين إلى السبعين))؛ (صحيح الجامع: ٥٨٨١).

وروى الحكيم أيضًا عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((أقل أُمَّتِي أبناء السبعين))؛ (صحيح الجامع: ١١٨٢).

وأخرج الطبراني في "الكبير" عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((أقل أُمَّتِي الذين يبلغون السبعين))؛ (صحيح الجامع: ١١٨٣).

إذا بلغ الإنسان مِنَّا ستين سنة فقد أعذر الله إليه:

ذكر البخاري بابًا بعنوان "مَن بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر".

قال - تعالى -: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} [فاطر: ٣٧]؛ يعني: الشَّيب، ثم ذكر بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((أعذر اللهُ إلى امرئ أَخَّر أجلَه حتى بلَّغه ستين سنة)).

- قال ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - في "فتح الباري" (٢٤٣/١١): "باب مَن بلغ ستين سنة، فقد أعذر الله إليه في العمر": "قد اختلف أهل التفسير في {النَّذِيرُ}، فالأكثر على أن المراد به: الشَّيب، واختلفوا أيضًا في المراد بـــ: "التعمير" في الآية على أقوال، وأصح الأقوال في ذلك ما ثبت في حديث الباب...، والإعذار: إزالة العذر، والمعنى أنه لم يبقَ له اعتذار، يُقال: أعذر إليه - إذا بلَّغه أقصى الغاية في العذر، ومكَّنه منه، وإذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكُّنه منها بالعمر الذي حصل له، فلا ينبغي له حينئذٍ إلا الاستغفار والطاعة والإقبال على الآخرة بالكلية"؛ اهـــ.

- نعوذ بالله أن نُعيَّر بطول العمر.

- فقد أخرج الحاكم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((إذا بَلَغَ الرجلُ من أُمَّتِي ستين سنةً، فقد أعذرَ اللهُ إليه في العُمُرِ))؛ (صحيح الجامع: ٤١٤).

- وأخرج عَبْدُ بن حميد عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إذا بَلَّغَ اللهُ العبدَ ستين سنةً، فقد أعذرَ إليه، وأبلغ[14] إليه في العُمُرِ))؛ (صحيح الجامع: ٤١٥).

---

(١) معترك المنايا: ما بين الستين إلى السبعين؛ أي: غالبًا ما تصرع المنايا الإنسان في هذا السن.

- وأخرج الحاكم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((لقد أعذر الله إلى عبدٍ أحياه حتى بلغ ستين سنة أو سبعين سنة، لقد أعذر الله إليه))؛ (صحيح الجامع: ٥١١٨).

- أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((مَن أتتْ عليه ستُّون سنة، فقد أعذر الله إليه في العمر))؛ (صحيح الجامع: ٥٩٤٥).

- وأخرج الحاكم عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((مَن عُمِّر من أُمَّتِي سبعين سنة، فقد أعذر الله إليه في العمر))؛ (صحيح الجامع: ٦٣٩٧).

- وأخرج ابن حبان وأحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((مَن عمَّره الله ستين سنة، فقد أعذر الله إليه في العمر)).

- وجاء في كتاب "صفة الصفوة" (١٥٦/٢)، و"الزهد الكبير" للبيهقي (ص ٢٦٥) عن وهب بن منبه قال: "قرأتُ في التوارة أن لله مناديًا يُنادِي كل ليلة: أبناء الأربعين، زرع قد دنا حصاده، أبناء الخمسين، هلمُّوا إلى الحساب، ماذا قدَّمتم وماذا أخَّرتم؟ أبناء الستين، لا عذرتم، أبناء السبعين، عدُّوا أنفسكم في الموتى".

أخي، ما مضى من العمر وإن طالت أوقاته، فقد ذهبت لذَّاته، وبقيت تبعاته، وكأنه لم يكن إذا جاء الموت وميقاته؛ قال الله - عز وجل -: {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، تلا بعض السلف هذه الآيات وبكى، وقال: "إذا جاء الموت لم يُغْنِ عن المرء ما كان فيه من اللذة والنعيم".

- يا أبناء العشرين، كم مات من أقرانكم وتخلَّفتم؟
- ويا أبناء الثلاثين، أصبتم بالشباب على قُربٍ من العهد فما تأسفتم.
- يا أبناء الأربعين، ذهب الصِّبا وأنتم على اللهو قد عكفتم.
- يا أبناء الخمسين، أنتم زرع قد دنا حصاده، تنصفتم المائة وما أنصفتم.
- يا أبناء الستين، هلمُّوا إلى الحساب، أنتم على معتركِ المنايا قد أشرفتم، أتلهون وتلعبون؟ لقد أسرفتم!
- أبناء السبعين، ماذا قدَّمتم وما أخَّرتم؟
- أبناء الثمانين، لا عُذْرَ لكم.

---

[14] أبلغ؛ أي: أطاله حتى قطع عذره.

- قال مسروق: إذا أتتك الأربعون فخذ حذرك.

- وقال النخعي: كان يقال لصاحب الأربعين: احتفظ بنفسك.

وكان كثير من السلف إذا بلغ الأربعين، تفرَّغ للعبادة.

- وقال عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله -: "تمت حجة الله على ابن الأربعين، فمات لها".

ورأى في منامه قائلاً يقول له:

إذا ما أتتكَ الأربعونَ فعندها = فاخشَ الإله وكنْ للموت حذَّارًا

- ورحم الله مَن قال:

وَإِذَا تكاملَ للفتى من عمرِهِ = خمسونَ وهو إلى التُّقَى لا يجنحُ

عَكَفَتْ عليه المُخزياتُ فَمَا له = مُتَأخر عنها وَلَا مُتَزحزحُ

وَإِذَا رَأَى الشيطانُ غُرَّة وجهِه = حيَّا وقال: فدَيْتُ مَن لا يُفلِحُ

قال الفضيل - رحمه الله - لرجل: "كم أتى عليك؟ قال: ستون سنة، قال له: أنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يُوشِك أن تصل"؛ (لطائف المعارف: ص ٣٢٩).

• خير الناس مَن طال عمره وحسن عمله:

- فقد أخرج الإمام أحمد والدارمي عن أبي بكرة - رضي الله عنه - أن رجلاً قال: "يا رسول الله، أي الناس خير؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((من طال عُمُره، وحسن عمله))، قالوا: يا رسول الله، وأي الناس شر؟ قال: ((من طال عُمُره وساء عمله)).

- وأخرج الإمام أحمد من حديث جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن من السعادة أن يطول عمر العبد، ويرزقه الله الإنابة)).

- وأخرج الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، والبزار عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((ألا أنبِّئكم بخيركم؟))، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: ((خياركم أطولكم أعمارًا، وأحسنُكم أعمالاً)).

- وأخرج ابن أبي شيبة عن عبدالله بن شدَّاد قال: "جاء ثلاثة رهط من بني عذرة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأسلموا، قال: فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((مَن يكفيني هؤلاء؟))، قال: فقال طلحة: أنا، قال: فكانوا عندي، قال: فضُرِب على الناس بعث، قال: فخرج أحدهم فاستُشهِد، ثم ضُرِب بعث، فخرج الثاني فيه فاستُشهِد، قال: وبقي الثالث حتى مات مرضًا على فراشه، قال طلحة: فرأيت في النوم كأني أُدخِلتُ الجنَّة فرأيتهم، أعرفهم بأسمائهم وسيماهم، قال: فإذا الذي مات على

فراشه دخل أولهم، وإذا الثاني من المستشهدين على أثره، وإذا أوَّلهم آخرهم، قال: فدخلني من ذلك، قال: فأتيت النبي - صلى الله عليه وسلم -: فذكرت ذلك له، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((ليس أحدٌ عند الله أفضلَ من مُعَمَّرٍ يُعَمَّرُ في الإسلام؛ لتهليله وتكبيره وتسبيحه وتحميده)).

وقد مرَّ بنا الحديث الذي أخرجه ابن ماجه عن طلحة بن عبيدالله: "أن رجلين من بَلِيٍّ قَدِما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان إسلامُهما جميعًا، فكان أحدُهما أشد اجتهادًا من الآخر، فغزا المجتهد منهما فاستُشْهِد، ثم مكث الآخر بعده سنة، ثم تُوُفِّي، قال طلحة: فرأيت في المنام: بينا أنا عند باب الجنَّة، إذا أنا بهما، فخرج خارجٌ من الجنَّة، فأَذِن للذي تُوُفِّي الآخِرَ منهما، ثم خرج، فأَذِن للذي استشهد، ثم رجع إليَّ فقال: ارجع، فإنك لم يأنِ لك بعدُ، فأصبح طلحة يُحدِّث به الناس، فعجبوا لذلك، فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدَّثوه الحديث، فقال: ((من أيِّ ذلك تَعْجَبُون؟))، فقالوا: يا رسول الله، هذا كان أشدَّ الرجلين اجتهادًا، ثم استُشْهِد، ودخل هذا الآخر الجنَّة قبله، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((أليس قد مَكَثَ هذا بعده سنة؟))، قالوا: بلى، قال: ((وأدْرَكَ رمضان، فصام وصلَّى كذا وكذا من سجدة في السنة؟))، قالوا: بلى، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((فما بينهما أبعد ممَّا بين السماء والأرض))؛ (الصحيحة: ٢٥٩١).

وأخيرًا أحبتي في الله، اعلموا أن الموت سيموت يوم القيامة:

أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح[15]، فينادي منادٍ: يا أهل الجنَّة، فيَشْرَئِبُّون[16]، وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه[17]، ثم ينادي: يا أهل النار، فيَشْرَئِبُّون، وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه - فيُذْبَح، ثم يقول: يا أهل الجنَّة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت، ثم قرأ قوله - تعالى -: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [مريم: ٣٩]".

وبعد:

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

---

[15] أملح؛ أي: فيه بياض وسواد.

[16] يشرئبون؛ أي: يمدون أعناقهم، ويرفعون رؤوسهم.

[17] وكلهم قد رآه؛ أي: يعرفون أنه الموت، بما يلقيه الله في قلوبهم أنه الموت.

نسأل الله أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منَّا بقَبُول حسن، كما أسأله - سبحانه وتعالى - أن ينفعَ بها مؤلِّفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحدَه، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان، فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا بشأن أي عمل بشري يَعْتَرِيه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي.

وَإِنْ وجدتَ عيبًا فسُدَّ الخَلَلا = فَجَلَّ مَن لا عيبَ فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا، ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين، وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، هذا والله - تعالى - أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك